علي مولا



طبقات المجتمع

أندريه چوسان

ترجمة

الدكتور السيد محمد بدوي


mohamed
mohamed
mohamed khatab



mohamed
mohamed
mohamed khatab


mohamed khatab

طبقات المجتمع

تأليف: أندريه جوسان

ترجمة: د. السيد محمد بدوى

مراجعة: د. أحمد عزت راجح



وزارة الثقافة



الهيئة العامة لقصور الثقافة

• طبقات المجتمع
• تأليف: أندريه چوسان
• تصميم الغلاف:
د. خالد سرور
الطبعة الثانية ٢٠١١
الهيئة العامة لقصور الثقافة
• رقم الإيداع: ١٦١٧٤ / ٢٠١١
• الترقيم الدولي: 978-977-704-752-4

التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

طبقات المجتمع



فهرس الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

مؤلف هذا الكتاب أحد المفكرين الفرنسيين المعاصرين الذين ضربوا بسهم وافر فى ميادين الفلسفة وعلم الاجتماع. وقد بدأ حياته العلمية فى مطلع هذا القرن بعد أن حصل على « الأجرجاسيون » فى الفلسفة ، وهى درجة لا يحصل عليها إلا عدد قليل من مئات الشبان الذين يتقدمون كل عام لهذه المسابقة ، بعد أن يمروا بسلسلة من الاختبارات الشاقة أمام هيئة تحكيم مكونة من فطاحل العلماء وأساتذة السوربون . ثم حصل بعد ذلك على درجة الدكتوراه فى الآداب . وظهر أول مؤلفاته الفلسفية فى عام ١٩٠٩ بعنوان « الأساس السيكولوجى للأخلاق »[١] . ثم ظهرت له فى السنوات التالية مؤلفات أخرى

---

(١) انظر قائمة أشهر المؤلفات التى كتبها المؤلف فى ذيل هذا التقديم ، مرتبة حسب تاريخ ظهورها .

عن أثر الرومانتيكية فى الدين والسياسة ، وعن فلسفة الطبيعة ، وعن الانفعالات الإنسانية ، وعن العواطف والذكاء . كما كتب فى تاريخ الفلسفة « دراسة نقدية لفلسفة بركلى » ؛ وعرّج بعد ذلك على علم الجمال فألف فيه كتابا عن « النظرية الجمالية عند ڤيكتور هوجو » موضحاً مواطن الروعة فى شعره الغنائى وفى ملاحمه الكبرى .

أما فيما يتصل بالدراسات الاجتماعية فإن أشهر ما كتبه المؤلف كتابه عن علم الاجتماع الاقتصادى ، ثم هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم بين يدى القارئ العربى .

ومن اليسير أن نلحظ أن المؤلف قد سار فى الطريق التقليدى الذى سلكه واضعو أسس علم الاجتماع فى فرنسا حين دخلوا ميدان علم الاجتماع من باب الفلسفة . فعل ذلك « أوجست كونت » ثم « دوركيم » من بعده . ولكن مؤلفنا يعلن فى صراحة أنه لا ينتمى لمدرسة أوجست كونت ودوركيم ، بل يتبع منهج المدرسة النفسية (السيكولوجية) التى وضع أسسها فى فرنسا أيضاً العلامة « جبرييل تارد » ، وانتمى إليها بعد ذلك بول لاكومب La combe ، وجاستون ريشارد Gaston Richard وفرانسوا منتريه Mentré ، ودوپرا Duprat .

وهو يعيب على مدرسة دوركيم رجوعها إلى مصدر واحد

لتفسير الحضارة الإنسانية ، وهذا المصدر هو العشيرة البدائية . ويقول إنها اتخذت من عقائد بعض القبائل البدائية : كالعقيدة الطوطمية Le totémisme أساساً لتفسير جميع العقائد والديانات حتى ما بلغ منها أعلى مراتب السمو والروحانية . ثم يستنتج من هذه الأمثلة التى يستدل بها على فساد المذهب « السسيولوجى » نتيجة يبدو فيها الغلو والتسرع بل والتحامل ، وهى أن المذهب قد أصبح اليوم عقيما بالياً لا يصلح أساساً لأى تفسير للظواهر الاجتماعية . وقد تكون هذه وجهة نظر أنصار المدرسة النفسية ، ولكن هذه المدرسة أيضاً لها عيوبها المنهجية وأهمها التبسيط المتناهى وتجزئة الظواهر والنظم تجزئة تضيع حقيقتها المركبة وتذهب بمعالمها وصفاتها الذاتية .

ومهما يكن من شىء فليست النظرة الاجتماعية هى التى أصبحت اليوم بالية ، بل إن الذى أصبح بالياً وعتيقاً هو ذلك الخلاف والنزاع بين أنصار المذهب الاجتماعى وأنصار المذهب النفسى . وقد احتل هذا الخلاف مكاناً بارزاً من تفكير علماء الاجتماع فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع هذا القرن . ولكن الجدل حول هذا الموضوع قد قفل بابه اليوم ، وأصبح علماء الاجتماع فى العصر الحديث من أمثال كولى Cooley فى أمريكا ، و « رادكليف

براون ، فى انجلترا [1] ، وجورڤيتش Gurvitch فى فرنسا لا ينظرون إلى المسائل الاجتماعية من وجهة نظر واحدة ، بل ينظرون إلى التأثير المتبادل والتفاعل بين الفرد والمجتمع . فإذا كانت العادات والتقاليد الراسخة تسود — فى بعض الأحيان — وتسيطر على العقول ، فقد يحدث — فى أحيان أخرى — أن يسود أثر الابتكار الشخصى والقوة الفردية الدافعة .

وإذا بحثنا فى الأسباب التى دفعت المؤلف إلى خوض غمار البحث الاجتماعى وجدنا أنه يشير إلى الثورات والانقلابات الاجتماعية التى نجمت عن الحروب ، وإلى الآفات الاجتماعية التى نجمت عن التصنيع ، كازدحام المراكز الصناعية ، وانتشار البطالة ، وتفشى الجريمة ، والتدهور الخلقى بين أوساط العمال . كل هذه العوامل أشعرتنا — كما يقول — بالحاجة الماسة للبحوث الاجتماعية كى نستعين بها على حل مشاكل الساعة من أزمات اقتصادية ، إلى سوء استغلال للنظم الديمقراطية ، وتدهور فى القيم الخلقية . فالمعرفة الدقيقة المتعمقة لقوانين التطور الاجتماعى، هى وحدها التى تمكننا من إيجاد الوسائل الأكيدة لعلاج الشرور

---

(١) أسس هذا العالم الكبير معهد العلوم الاجتماعية بجامعة الاسكندرية . وكان من حظى أن تتلمذت عليه واشتغلت معه فى بعض بحوثه فى عامى ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ . وقد تسنح الفرصة لنشر هذه البحوث فى وقت قريب .

والأخطار التى تئن منها الإنسانية فى العصر الحاضر . وإن ماتسديه إلينا هذه المعرفة الاجتماعية من خدمات لاتقل عما أسدته معرفة قوانين العالم الطبيعى من خدمات للإنسان ، حين مكنته من الدفاع عن نفسه ضد الكوارث والوحوش الضارية والمجاعات والأوبئة ، وجعلته يستخدم مصادر الطبيعة ويسخرها لتحقيق الرقى وتوفير الرفاهية لنفسه ولمجتمعه .

وقد عنى المؤلف فى كتابه عن الاجتماع الاقتصادى ، بدراسة ظاهرة تقسيم العمل من حيث الأسس التى قامت عليها ، ودرجات هذا التقسيم والفوائد التى يحققها للمجتمع . وأتاحت له هذه الدراسة فرصة الكلام عن علاقة الطبقات الاجتماعية — وعلى الأخص الطبقة الأرستقراطية — بتقسيم العمل ، وهو الموضوع الذى أفاض فيه الكتاب الذى نقدمه اليوم . ثم درس بعد ذلك العوامل التى تؤثر فى الحياة الاقتصادية وقسمها إلى عوامل طبيعية أو جغرافية ، وعوامل عنصرية ، وعوامل سياسية ، وعوامل سكانية ، وعوامل روحية . وأفرد فصلا لدراسة أشكال الإنتاج فشرح الاقتصاد البدائى والاقتصاد العائلى ، ثم اتساع نطاق الإنتاج حتى أصبح ذا طابع عالمى . وانتقل بعد ذلك إلى الكلام عن مستوى المعيشة وعن كفاح الطبقات العاملة ضد العوز والفقر ، وتتبع نمو التشريعات الاجتماعية التى أصدرتها الدول المتحضرة

لتأمين العمال ضد عسف أصحاب العمل وضد البطالة والعجز والإصابات .

أما كتاب « طبقات المجتمع » فقد تتبع فيه الأصـــول التاريخية لنشأة الطبقات ، وهو منهج حرص على بيان أهميته بقوله : « إننا لا نستطيع أن نفهم ظاهرة فى مجتمعاتنا الحالية إلا بالرجوع إلى أصولها الأولى » . وبدأ الكتاب بمقدمة عن معنى الطبقة الاجتماعية شرح فيه أهم العناصر التى تدخل فى تحديد هذا المعنى ، وهى الثروة والحرفة ونوع الحياة ، وأكد تداخل هذه العناصر وتشابكها بحيث لا يمكن فصل أحدها عن بقية العناصر الأخرى . وانتهى من هذه المقدمة إلى القول بأن الطبقة الاجتماعية وإن كانت حقيقة ماثلة فى كل مجتمع ، إلا أننا لا يمكننا أن نحددها تحديداً صارماً كما نحدد الأشكال الهندسية .

وفى الفصل الأول تكلم المؤلف عن عامل الثروة وأثره فى كسب النفوذ والسيطرة . وفى الفصل الثانى تكلم عن تكوين الطبقات الاجتماعية ، ونشأة علاقات التبعية بين رجل ورجل عن طريق نظام الرق ، وبين شعب وشعب عن طريق الغزو ، كما تكلم عن نشأة نظام الإقطاع وظهور طبقة رجال الكنيسة ، وعن الامتيازات التى اكتسبها النبلاء بفضل خدماتهم الحربية ، ورجال الكنيسة بفضل خدماتهم الثقافية . أما الفصل الثالث فقد كرسه للكلام عن تطور الطبقات ؛ فبين كيف تندمج بعض الطبقات فى

بعض ، وكيف تصبو الطبقات الدنيا إلى الصعود والرقى ، على حين تنحط بعض الطبقات العليا إلى مرتبة أدنى بسبب ابتعادها عن فضائلها الأصلية وواجباتها الأساسية . وقد سنحت للمؤلف فرصة الكلام فى هذا الفصل عن صعود طبقة البورچوازية بفضل حرصها على العمل والتفانى فيه والتمسك بالمبادئ الخلقية ، وتدهور طبقة النبلاء بسبب غطرستها وانغماسها فى اللهو . وفى الفصل الرابع تكلم المؤلف عن الطبقات والحياة السياسية فوضح أثر القوانين فى بيان حقوق الطبقات وواجباتها ، ونزوع الطبقات المختلفة للاندماج فى الحياة السياسية والتأثير على الحكومات ، وأفاض فى الكلام عن التنافس وأنواع النزاع بين الطبقات . أما الفصل الخامس والأخير فقد خصصه للكلام عن الاتجاهات والتيارات الخلقية عند الطبقات المختلفة : فتحدث عن قواعد التأدب لدى كل طبقة ، وما تتميز به من عادات وما يسيطر عليها من آراء وأفكار متسلطة ، وختم بحثه بالكلام عن تأثير الطبقات بعضها فى بعض من الناحية الثقافية .

فالكتاب — كما نرى من هذا العرض السريع — يتميز بالإصالة والإحاطة بالموضوع من شتى نواحيه . كما أن له ميزة أخرى وهى عرض النظم من ناحيتها التاريخية عرضاً مبسطاً ووافياً فى الوقت نفسه ، فأتاح بذلك للقارئ العادى فرصة التثقف واكتساب المعلومات العامة دون عنت أو إرهاق .

وكل ما نرجوه هو أن ينتفع به قراء العربية ، ويجدوا فيه متعة وثقافة تعدل الجهود التى بذلت فى ترجمته ومراجعته .
ولا يسعنى فى ختام هذا التقديم إلا أن أنوه بالجهود الطيبة والمعونة الصادقة التى قدمها لى الزميل الأستاذ الدكتور أحمد عزت راجح حتى خرج الكتاب فى صورته النهائية .

وإنى إذ أقدم له شكرى ، أرجو أن يوفقنا الله وإياه لخدمة العلم والثقافة وأن يعيننا على القيام بنصيبنا فى خدمة الوطن .

أكتوبر سنة ١٩٥٦

السيد محمد بدوى

أهم مؤلفات المؤلف

أولا : فى الفلسفة

1. Le fondement psychologique de la morale (1909). Epuisé.

2. Romantisme et Religion (1910). (Recompensé par l'Institut).

3. Esquisse d' une philosophie de la nature (1912).

4. Romantisme et Politique (1924).

5. Les Passions Humaines (1928).

6. Les Sentiments et l'Intelligence(1930).

ثانياً : فى تاريخ الفلسفة

7. Exposé critique de la philosophie de Berkeley (1920) (Recompensé par l'Institut.)

ثالثاً : فى علم الجمال

8. L' Esthétique de Victor Hugo . Le pittoresque dans le lyrisme et dans l'épopée (1920).

رابعاً : دراسات عنصرية وتاريخية

9. L' Allemagne contre la France (1923).

خامساً : فى الاجتماع

10. Petit traité de Sociologie Economique (1931).
11. Les Classes Sociales (Que sais-je ?) (1949).

مقدمة

ما هى الطبقة الاجتماعية ؟

الطبقات حقائق اجتماعية تقوم فى كل مجتمع بالرغم من جميع النظريات وجميع العبارات التى تحاول إنكارها . ويبين لنا التاريخ وجود طبقات مختلفة عند جميع الشعوب ، كانت تتعاون فى هدوء أحيانا ، وكان يقوم بينها الصراع أحيانا أخرى ، كما كان يحدث بين طبقة الدهماء وطبقة الأشراف[1] فى روما القديمة .

وقد دلت بحوث الأثنوغرافيا (وصف الأجناس البشرية) كذلك على وجود الطبقات حتى فى الشعوب البدائية. وفى الديموقراطيات الحديثة ، كما فى الديموقراطيات القديمة ، ينتخب الناس من يمثلونهم وفقا لمصالح الطبقات . ويزداد وضوح حقيقة الطبقات فى حياتنا الجارية . فالمرء يولد فى طبقة معينة ويختلط بأفراد من الطبقة التى ينتمى إليها ويختار زوجه عادة فى محيط طبقته ، وقد يرتفع المرء من طبقة إلى أخرى أو يهبط من طبقة إلى طبقة أدنى ، فهناك الوصوليون ومن لفظتهم طبقتهم ، ومصير كل فرد يرتبط إلى حد كبير بالطبقة التى ينتمى إليها وقد كتب لويس روجييه Louis Rougier فى هذا المعنى يقول : « إن وجود كل إنسان يحدد وينظم مقدما كقصيدة شعرية جميلة » ، ولم يخطىء حين أضاف إلى ذلك « أن هذه

---

(1) طبقة الدهماء Les Plébeiens وطبقة الأشراف Les patriciens

الحقيقة تصدق دائما فى أى زمان وفى ظل أى نظام سياسى، وإن اختلفت حدودها سعة أو ضيقا ».

فما هى إذن الطبقة الاجتماعية على التحديد ؟ ...

إن هذه الكلمة تجرى على ألسنتنا دائما فى أحاديثنا الخاصة ، ونراها فى الجرائد وفى المنشورات الانتخابية ، وفى برامج الأحزاب ، ونحن نسمع فى كل لحظة عن الصراع بين الطبقات ، وعن تعاون الطبقات وعن فكرة وجود مجتمع بغير طبقات الخ . . . .

إن كل إنسان يكوّن لنفسه رأيا عن الطبقات الاجتماعية ، ولا يشك فى أنه يفهم جيدا معنى هذه الكلمة . ومع ذلك فلو سألنا أحدا من هؤلاء الذين يتحدثون عنها أن يعطينا تعريفا لها ، أو يحدد لنا بدقة ماذا تعنى ، فإن قليلا منهم مَنْ لا تتملكه الحيرة أو لا يظهر فى تفسيره ما يدل على عدم وضوح هذه الفكرة لديه .

وما ذلك فى الواقع إلا لأن الطبقة الاجتماعية على درجة كبيرة من التعقيد ، فالحقائق التى تعرف بها الطبقة مختلفة من حيث طبيعتها أشد الاختلاف كما أنها تتفاوت تفاوتا كبيرا من حيث أهميتها . إن الحقيقة الاجتماعية التى نريد الكلام عنها لا يمكن الإحاطة بها بنظرة واحدة فيجب أن ننصرف إلى تحليلها .

الثروة :

والثروة هى أول ما نفكر فيه حين نتكلم عن الطبقات . والواقع

أن أحاديثنا العادية تدور حول الطبقات الغنية ، والطبقات الفقيرة ، والطبقات المتيسرة ، والطبقات المتوسطة ، وطبقة الملاك ، وطبقة المعدمين الخ . . ويميز « جيزو Guizot » من هذه الناحية بين ثلاثة أنواع من الحالات الاجتماعية . فهناك أولا من يعيشون على أملاكهم العقارية أو ثرواتهم المنقولة ، أى على الأراضى أو رءوس الأموال ، بدون أن يحاولوا زيادة ثروتهم عن طريق العمل . وهناك من يجهدون فى استغلال ثرواتهم وزيادة أملاكهم عن طريق عملهم الخاص . وأخيرا هناك من يعيشون من عملهم دون أن يكون لهم أملاك أو رأس مال . وهذه الأنواع — كما يقول — تعبر عن حقائق عامة نستطيع أن نعثر عليها فى أى مجتمع إنسانى .

ويميز شارل جيد « Gide » بدوره — من حيث توزيع الثروة — بين ثلاث طبقات أو فئات ، إذ يقول فى كتابه « محاضرات فى الاقتصاد السياسى » [١] إن « هناك أولا العمال الذين يتقاضون أجراً ، ثم الرأسماليين الذين يحصلون من رأسمالهم على ربح وأخيراً الملاك الذين يعيشون على دخلهم . وفيما عدا هذه الفئات لا يوجد إلا المعدمون الذين يعيشون على الصدقات والدولة التى تحصل الضرائب » .

---

(١) Cours d'economie politique

المهنة :

ولكن هيهات أن تكفي الثروة وحدها لتحديد الطبقة ، فللمهنة على الأقل من الأهمية ما للثروة . وتشهد بذلك العبارات التي تسجل تلقائيا ملاحظات الناس . فهم يتحدثون دائما عن طبقة العمال وطبقة الفلاحين ، وعن طبقات التجار ، والصناع ، وأصحاب المهن الحرة الذين يعتبرون طبقة واحدة . ويميز شارل جيد من هذه الناحية بين طبقتين كبيرتين تنقسم كل منهما إلى فئات . فهناك من ناحية ، طبقة الرأسماليين ، وتضم طائفة ذوى النشاط الإيجابي أو أصحاب المشروعات التي تدر الربح ، وطائفة السلبيين ، وهم الملاك الذين يعيشون على دخلهم . وهناك من ناحية أخرى طبقة العمال ، وتشمل فئات الأجراء[١] من عمال الزراعة والصناعة والمستخدمين والموظفين والخدم ، كما تشمل ذوى الأعمال المستقلة ، كالصناع[٢] والفلاحين والمستأجرين وأصحاب المتاجر وأصحاب المهن الحرة . وهؤلاء جميعا يكونون ما نطلق عليه عادة اسم الطبقات المتوسطة .

وفي كثير من الحالات تبدو لنا الطبقة مستقلة عن الثروة ومتصلة بالوظيفة ، فالصانع الفني L'artisan يتميز عن العامل حتى ولو كان كسبه لا يتعدى أقل أجر يتقاضاه العامل ، وما ذلك إلا لأنه

---

(١) Les salariés

(٢) Les artisans

لا يخضع لصاحب عمل بل ، يظل فى عمله سيد نفسه . ويروى لنا « رينيه كاييه René Caillée ، وهو أول أوربى وصل إلى تومبكتو[١] أن الأفراد الذين يعملون نظير أجر يومى ، يعاملون كأفراد طبقة دنيا . ومعنى ذلك أن طبيعة العمل هى التى تحدد الطبقة التى ينتمى إليها الفرد .

ومع ذلك فالمهنة وحدها لا تكون الطبقة ، إذ أن الطبقة سابقة على المهنة : فالإنسان يولد فى طبقة معينة على حين أنه يختار مهنته فيما بعد . أضف إلى ذلك أن الطبقة كثيراً ما تؤثر فى اختيار المهنة فهناك مهن يقتصر فى ممارستها على التوارث من الأب إلى الابن كمهنة الزراعة أو التعدين أو الصيد ، فلا ينصرف امرؤ إلى فلاحة الأرض أو لا ينزل إلى المنجم ولا يواجه أخطار البحر فى قارب للصيد ، إذا لم يولد فى الوسط الذى يعيش على هذا النوع من العمل ، فيزاوله مقتديا بذويه . والبورجوازى لا يمكن أن يمتهن مهنة النجار أو القفال أو الحداد أو الخباز فضلا عن مهنة الفلاحة . وإذا كانت هناك حالات شاذة فهى بلا شك نادرة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الطبقة الواحدة تضم عادة أشخاصاً من مهن مختلفة : فنرى مثلا أن الأطباء والمحامين والموثقين والأساتذة ينتمون إلى طبقة أصحاب المهن الحرة . فتشابه العمل وما يتطلبه من معرفة

---

(١) فى افريقيا الاستوائية الغربية .

ومعلومات ، وخلوه من المجهود الجسماني الأليم ، الذى قد يعرقل عمل الفكر ، كل ذلك يكفى لإدماج هذه الفئات الاجتماعية المختلفة فى طبقة واحدة . كذلك الحال فى طبقة العمال ، فإنها تشمل حرفا من أنواع مختلفة كحرفة البناء والطلاء وصناعة الزجاج والعمل فى المصانع المختلفة الخ . . وعلى هذا الأساس يمكن القول إن الطبقة أوسع من الحرفة أو المهنة .

نوع الحياة :

من هذا نرى أنه لا الثروة ولا المهنة تكفى وحدها لتحديد الطبقة . ذلك أنه يجب فى الواقع — إذا تفاوتت الثروة — أن ندخل فى اعتبارنا طريقة الاستمتاع بها ، وإذا كانت المهنة واحدة وجب أن نراعى الظروف التى تمارس فيها . فالتاجر مثلا ينتمى إلى الطبقة الوسطى (البورجوازية) [1] إذا كان صاحب متجر كبير ولا يظهر فى محل تجارته إلا للتوجيه وإعطاء الأمر لمستخدميه ، وهو مجرد بائع إذا كان يقوم بوزن السلع ويخـــدم زبائنه بنفسه . والبرجوازى المتلاف الذى يقضى معظم وقته متبذلا فى المقاهى يختلط بكل من هب ودب ، ويغرق نفسه فى الديون ، ويشعر دائما

---

(١) — البورجوازية اسم يطلق على الطبقة الوسطى وتضم عادة التجار وأصحاب المهن الحرة ورؤساء العمل وهذه الطبقة لها روحها المحافظة وتقاليدها الخاصة ولا تميل كثيرا إلى الاندماج مع الطبقات الأخرى (المترجم)

بأن مالديه من مال يعجز عن سد مطالبه ـ هذا الشخص تنطبق عليه صفة « البوهيمى » أكثر مما تنطبق عليه صفة البورجوازى .

وعلى العكس من ذلك فالعامل الذى يكسب أجراً طيبا من عمله إن كان يعمل بهمة وجد ، ويقتصد جزءا من كسبه ، ويقتنى حديقة صغيرة يزرعها ، وتشرف على منزله زوجة مدبرة تتقن وظيفتها كربة بيت ، وتربى أولاده تربية قويمة ـ مثل هذا العامل يعيش عيشة برجوازية بالرغم من أنه يمارس حرفة يدوية ، وكثير من العمال فى الولايات المتحدة يتمتعون فى منازلهم بغرفة استحمام كاملة ، ولكل سيارته وجهاز الراديو ، وكذلك الحال فى استراليا ، إذ يتطلع العامل لأن يكون له بيت مستقل ، يحتوى على حمام كامل ، وأن يتناول اللحم فى وجبة الافطار وفى العشاء ، وأن يلبس ملابس بورجوازية . وعمال الآلات الزراعية على الخصوص يقتنى كل منهم حلة (سموكنج) يرتديها عند الذهاب لقضاء سهرة فى المسرح .

إذا نظرنا إذن إلى كل هذه الظروف والاعتبارات نجد أن الطبقة العاملة تقترب من البورجوازية ، وبالعكس نجد أن الهزات العنيفة التى أحدثتها الحرب الأخيرة ١٩٣٩ — ١٩٤٥ فى ثروات وحظوظ بعض الناس قد قربت نوع الحياة التى كانت تحياها الطبقات المتوسطة من حياة العمال . وقد حدث مثل ذلك فى ألمانيا عقب الحرب العظمى الأولى ١٩١٤—١٩١٨ . ومن المألوف أن نرى اليوم فى أوروبا رجالا متقاعدين من الضباط العظام

والأساتذة أو مفتشى التعليم وهم عائدون من الأسواق إلى منازلهم يحملون الخبز ، وقنانى النبيذ ، وسلال المؤن ، أو يكنسون أمام منازلهم إلى غير هذا من الأعمال التى ما كنا نراها قط من قبل والتى ما كان أمثال هؤلاء الناس يقبلون القيام بها . كما أن قانون التركات[1] وزيادة الضرائب العقارية ، مع حظر رفع الإيجارات ، والغلاء المتزايد فى أثمان الحاجيات ، كل ذلك كان من شأنه ضعضعة حال صغار الملاك وذوى الدخل الصغير ، فأخذت البورجوازية الجميلة — ذات التقاليد التى كانت قديماً سر قوة بلد كفرنسا مثلا — أخذت تنحدر وتميل إلى الاندماج فى الطبقات العاملة .

وهكذا نرى أننا وقعنا على عامل ثالث من العوامل التى تؤثر فى تحديد الطبقة الاجتماعية ألا وهو « نوع الحياة » وهو عامل يتصل بالمظهر والثقافة ، بقدر ما يتصل بالطريقة التى تمارس بها المهنة ، وبالوسائل التى يستخدمها الفرد للاستمتاع بثروته . فلكل طبقة سلوكها الخاص وطريقتها فى الغذاء وتفضيل بعض أنواع من الطعام وطريقتها فى اللهو وقضاء أوقات الفراغ وفى تنظيم مصروفاتها كما أن لها عاداتها الجسمية والفكرية وتتميز بألفاظ معينة وطريقة خاصة فى الكلام . . . . الخ .

وتصرفات كل طبقة ، تحددها أنواع الأعمال المادية التى تقوم بها المهنة أو الحرفة من ناحية ، وكذلك الثروة من ناحية ثانية ، كما تحددها

---

(١) القوانين التى تعطى الدولة الحق فى الاستيلاء على نسبة من التركة وهذه النسبة تصاعدية ترتفع كلما زادت قيمة التركة .

الثقافة من ناحية ثالثة . وهذا التشابه فى التصرفات والأذواق الذى تحدده هذه العوامل الثلاثة هو الذى يتيح لأشخاص من مهن متشابهة أو على ثراء متقارب ، أن يتحدث بعضهم إلى بعض وأن يتفاهم بعضهم مع بعض ، وينصرفون إلى أنواع واحدة من اللهو ويجدون متعة فى أشياء معينة ، ويتخذ بعضهم بعضا نموذجا ، خصوصاً فيما يتعلق بالأزياء والرحلات ، وقضاء العطلة ، واختيار الكتب والملاهى ووسائل تربية الأطفال الخ ...

التربية والثقافة :

مما تقدم نستطيع أن نتبين الأهمية الكبيرة للتربية والتقاليد فى الطبقات العليا من المجتمع . وقد لاحظ كارنو « Carnot »[1] بحق أن عدم المساواة فى الثروة أقل ، فى أهميته وخطره من عدم المساواة فى التربية . وفى هذا يقول إن الثرى الذى ينتمى إلى طبقة عليا — حتى ولو كان جاهلا — يحتفظ من طفولته التى قضاها فى وسط مستنير بأفكار عامة أولية وبدرجة من الامتياز فى اللغة والتعبير ، يتعذر إدراكها عن طريق الدرس والتحصيل . ويضيف « كارنو » إلى ذلك أن الإنسان إذا لم يكن مزوداً بهذا القدر من الثقافة الأولى (أى ثقافة الوسط الذى ينشأ فيه) شعر

(١) رجل من رجال السياسة الفرنسيين انتخب عضوا فى الحكومة المؤقتة سنة ١٨٤٨ ، وهو ابن العالم الرياضى الكبير الذى نظم جيوش الثورة الفرنسية ولقب لذلك « بمنظم النصر » . (المترجم)

بالمهانة وبأنه غريب متى اتصل بأناس تميزوا عليه من هذه الناحية . أما إذا كانت الثقافة الأولى واحدة أصبح التفاهم بينهم سهلا .

وما لاحظه «كارنو» فى آخر القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر لاحظه « رابازا Rabasa » فى المكسيك حيث تمايز الطبقات الاجتماعية — كما يقول — تمايزاً واضحا، وتتفاضل تفاضلا يرجع فى المقام الأول إلى عامل التربية وحده تقريباً .

« فالثروة لا تتدخل إلا قليلا وبالقدر الضرورى الذى يكفى لإعطاء المظهر للطبقة العليا، أما السلالة فلا أثر لها فى تحديد الطبقة. فالهندى الذى يتمتع برقة المظهر وحسن المعشر ، يستطيع أن يتخذ طريقه إلى أرقى الأوساط بنفس الحرية التى يتمتع بها الأبيض ، ويستطيع كذلك أن يشغل أعلى الوظائف الخ . . . . وقد لاحظ « فرنان جرينار Grenard » ملاحظات من هذا القبيل فى روسيا القيصرية فلم تكن كتلة العامة أو الرعاع تتألف من الفقراء وحدهم — وهو يقول « لقد عرفت هناك كثيراً من أصحاب الملايين لا يعرفون القراءة أو الكتابة : وهم لا يخرجون عن كونهم فلاحين أغنياء ومرابين يعيشون كما يعيش جيرانهم من الفلاحين الحقيقيين. هؤلاء الأغنياء الذين كانوا يعدون بمئات الألوف كانوا فى نظر المجتمع من العامة . إذ أن التميز لا يرجع إلى الحالة المادية بقدر ما يرجع إلى الثقافة والمظهر » .

وعلى هذا الأساس يجب الاعتراف بأن هناك طبقات مثقفة وطبقات غير مثقفة ، طبقات تضم أناساً تميزوا بسمو التربية وأخرى يتجرد أفرادها على الأغلب من عناصر التربية الممتازة . وفى النوع الأول يعلق الأفراد أهمية كبرى على الثقافة لذاتها ويعملون على التزود بالثقافة لاهتمامهم بالأدب والفنون والفلسفة والعلوم . وهم يقدرون إلى أسمى درجة قوة العقل والمواهب الممتازة ، وأرفع أنواع التأدب والرقة فى الحديث والمقابلة . أما فى النوع الثانى فإن التعليم لا يقدر إلا بقدر منفعته العملية ، والثقافة الممتازة لا نصيب لها إلا الإهمال . أما طرائق التأدب ولطف المعاملة فيحكم عليها بأنها نوع من النفاق أو الحذلقة ، ولا يكون نصيبها إلا التهكم بدافع الحسد أو الاحتقار بدافع الغلظة والخشونة . ويكون هذا بمقدار ما تكون غريبة عن خلق القوم وطرقهم فى التعامل .

التأثير المتبادل بين جميع هذه العناصر :

بدت لنا العناصر المختلفة التى تحدد معنى الطبقة وهى الثروة والمهنة والتربية ونوع الحياة والثقافة ، كما لو كان كل منها مستقل عن الآخر استقلالا نسبياً ، فهى لا تتضمن بعضها البعض بالضرورة . ولكن إذا كان من الممكن وجود بعضها دون البعض الآخر أحيانا فهذا لا ينفى تضافرها فى كثير من الحالات . فالثروة والمهنة مثلا تنزعان إلى تحديد نوع الحياة وقد لاحظ «اتيين مارتن سان ليون Etienne Martin-Saint Léon» بهذا الصدد أن المستخدمين عادة —

إلا قليلا من الفئة الدنيا ــ لايخاطبون بعضهم بصيغة «الأنت»[1] كما يفعل العمال ولا يقرعون كؤوسهم وهم وقوف أمام « بارات » حانات النبيذ ، كما أن زوجاتهم لا يذهبن إلى « المغسل العمومى » كزوجات العمال . أما أغنياء الناس فلهم حياتهم الاجتماعية التى تزخر بالاستقبالات والمسالى مما يستحيل وجوده بدون الثروة .

ومن جهة أخرى فإن المهنة لها بالضرورة علاقة بالثروة ، فمن المهن ما يتقاضى عليها صاحبها أجراً أو مرتباً يرتفع أو ينخفض حسب مكانة المهنة ، ومنها ما يدر أرباحا مغرية والثروة تكون فى أغلب الأحوال من حظ رجل الصناعة أو التجارة لا من نصيب الموظف الصغير كما أن الثقافة بدورها لها علاقة بالمهنة . فنحن نجدها عند الجامعيين والأطباء وضباط البحرية مثلا أكثر مما نجدها عند المشتغلين بالصناعة أو بالتجارة . وقد يكون لها من بعض النواحى علاقة بالثروة : فالثروة تتيح لصاحبها أن يتمتع بجميع أنواع اللذات، سواء أكانت أكثرها سموآ أوأحطها درجة ، كما تتيح لمن يعرفون كيف يستخدمونها وسائل الاستمتاع بالثقافة العالية واكتساب اللغات المختلفة بالتردد على البلاد الأجنبية ، وطول الإقامة بها أو بأخذ دروس فيها على يد أقدر الأساتذة : كما يتيح المال كذلك تذوق الفنون والآداب ودراستها بالزيارة المتصلة للمتاحف وحضور

(١) ــ فى فرنسا يرفع العمال الكلفة فيما بينهم ويخاطبون بعضهم الضمير المفرد « tu »أنت بدلا من ضمير الجمع « Vous » كما يفعل الناس عادة . (المترجم)

الحفلات الموسيقية والمسرحية وعن طريق اقتناء مكتبة غنية بالمؤلفات، كذلك عن طريق تكوين العلاقات مع ذوى الثقافة الممتازة أو الذين يشغلون مناصب رفيعة أو مع الكتاب ذوى الشهرة أو الفنانين ذوى المواهب الخ . . . .

صعوبة تحديد معنى الطبقة :

إن تداخل العوامل المختلفة التى ذكرناها ، يجعل من العسير علينا أن نحدد معنى الطبقة بوضوح ودقة ، كما تحدد الأشكال الهندسية كالدائرة أو الشكل المتعدد الأضلاع مثلا ، أو كما تحدد المعانى الاختبارية فى العلوم الطبيعية ، كمعنى الزواحف أو الثدييات أو القوارض أو الحيوانات المجترة . فالطبقة ليس لها حدود مرسومة بدقة كما هى الحال فى الطائفة أو الفئة الاجتماعية ، ولا نستطيع أن نقول بالضبط أين تبدأ حدودها وأين تنتهى . كما أن الطبقة الواحدة تضم بين ثناياها فئات تتنوع أشد التنوع . فنوع الحياة والتربية والثقافة ، قد تختلف فى الواقع بين أناس يمارسون مهنة واحدة أو يملكون ثروات متساوية ، وقد يحدث على العكس أن تتشابه هذه النواحى فى أناس يمارسون مهناً مختلفة أو يتفاوتون من حيث درجة الثراء . وقد يفسح النبوغ أو الثقافة الممتازة أو الشهرة المجال أمام كاتب أو فنان كبير أو واعظ فصيح بليغ فيختلط بأناس ويندمج فى أوساط ما كان له أن يندمج فيها لو نظرنا إلى أصله أو مهنته أو أعماله العادية . وهناك أسر عريقة فقدت ثروتها ولكنها

ظلت تحتفظ بعاداتها وطرق معشيتها التى كانت تتيحها لها ثروتها الغابرة وبعلاقاتها مع الأوساط التى عرفتها أيام ثرائها وبمظهرها الممتاز الذى اكتسبته بفضل الثروة. كذلك يحتفظ حديثو النعمة أو أغنياء الحرب — كما اعتدنا أن نسميهم — بعاداتهم وطرق معيشتهم القديمة التى لا تتناسب مع وضعهم الجديد.

لهذه الاعتبارات جميعا يمكن القول بأن الطبقات حقائق اجتماعية لا يمكن تحديدها تحديداً صارما: فهى فى هذه الناحية شبيهة بتلك الـ... التى تتشكل فى السماء بأشكال مختلفة تحت تأثير الرياح أو بتلك البقع الملونة التى ترتسم على سطح البحر عند غروب الشمس فى شكل دوائر ذهبية ولازوردية وظلال بدون أن نستطيع أن نحدد بدقة أشكالها أو ألوانها الحقيقية. ولهذا السبب نلاحظ فى أحاديثنا الدارجة التى تسجل بطريقة آلية الملاحظات التلقائية لعامة الناس، أن تصنيف الأفراد فى طبقات يختلف باختلاف وجهات النظر والاعتبارات التى نضعها أمامنا. فنتكلم عن الطبقات الغنية أو المتوسطة أو الفقيرة حين ننظر إلى الثروة ونتكلم عن الطبقات المثقفة والطبقات الجاهلة حين لا نضع فى اعتبارنا إلا درجة التثقيف ونتكلم عن الطبقات المهذبة الممتازة الرقيقة، وعن طبقات الأجلاف وخشنى الطباع وعديمى الذوق، حين لا ننظر إلا فى طرق التصرف ووسائل التعبير وفى هذا ما يبعث على الاعتقاد بأن الطبقات ليست حقائق

فى ذاتها بقدر ماهى وجهات ، نظر يكونها من يلاحظ مجتمعا من المجتمعات ، عن أفراد هذا المجتمع .

ومع ذلك فإن عدم تحديد فكرة الطبقة يجب ألا يكون وسيلة لتغريرنا . إذ أنة لا يحول دون أن تكون الطبقة إحدى المعطيات المشخصة التى يمكن تمييزها كما نميز فى علم الحيوان أو النبات تقسيماته إلى شعب وفصائل وأسر ومراتب وأجناس وأنواع أو كما نميز الحيوانات الفقرية والضفادع والحشرات المجنحة . على أننا إذا دققنا النظر فى العلوم الطبيعية ذاتها وجدنا أن التصنيفات فيها ليست إلا نسبية بحيث لا نفصل بين فصيلة وأخرى فصلا صارما . فهناك حالات كثيرة نجد فيها أن أحد الأنواع يوضع مع غيره فى عائلة أو رتبة واحدة لاشتراكه معها فى بعض الصفات ، ولكنه يختلف عنها اختلافا بيناً فى صفات أخرى . مثال ذلك الحيوان المسمى Ornithoryuque (وهو حيوان يعيش فى استراليا) فهو يصنف عادة مع الثدييات لأن له ثديين ولو أنهما ضامران ولكن له إلى جانب ذلك منقار من مادة قرنية يقربه كثيراً من الطيور كما أنه يبيض فى الأرض ويرقد فوق بيضه هذا إلى أنه يقترب كثيرا من الزواحف من حيث تركيب أعضائه الداخلية . ومثال آخر هذا الحيوان المائى المسمى dipnewste والذى يصنف مع الأسماك ومع هذا فله رئتان (كالحيوانات البرية) وخياشيم

(كالأسماك) ويتنفس بهذه أو بتلك حسب فيضان المستنقعات التى يعيش فيها بالماء أو نضبها منه .

لذا لايحق لنا بعد اقتناعنا بهذه الأمثلة أن نعرض عن اعتبار الطبقات الاجتماعية حقائق لها كيانها فانها فى الواقع حقائق تفرض نفسها على عالم الاجتماع كما تفرض نفسها على المؤرخ .

فكل طبقة اجتماعية تتألف من عدد قل أو كثر من الأفراد يتشابهون فيما بينهم فى نواح معينة كنوع الحياة أو الحرفة أو الثروة والتعليم والثقافة ويختلفون عن غيرهم فى هذه النواحى نفسها داخل نطاق المجتمع الواحد وكل طبقة تنشأ من تمايز تلقائى يحدث من ضغط الحاجات وتنوع أوجه النشاط فى المجتمع ويتأثر بالزمن الذى يعيش فيه أفراد المجتمع . وهذا التمايز أساسه على التحديد تقسيم العمل الاجتماعى ووزيع الثروة واختلاف العادات باختلاف ظروف المعيشة التى يعيشها الأفراد . وتبدو الطبقة متماسكة وثابتة أمام عينى الناظر بمقدار ما تكون السمات المختلفة التى تميزها كالثروة والحرفة وغيرها — متآمرة يؤثر بعضها فى بعض . أما إذا كانت هذه السمات مستقلة بعضها عن بعض وعرضة للتغير ظهرت الطبقة فى شكل مائع وغير محدد .

فيم تختلف الطبقة عن الطائفة وعن الفئة الاجتماعية ؟

فى ضوء التحديد الذى أشرنا إليه تظهر لنا الطبقة الاجتماعية

متميزة عن كل من الطائفة La caste والفئة الاجتماعية Catégorie Sociale.

أما عن الفئات الاجتماعية فيتمايز بعضها عن بعض على الدوام تمايزا واضحاً لأن تصنيفها يقوم على خاصة أساسية واحدة أو مجموعة من الخصائص يتماسك بعضها ببعض تماسكا وثيقاً ، فهى تقوم مثلا على الحرفة وحدها حين نتكلم عن فئة البنائين وفئة صانعى الزجاج وفئة الأساتذة وفئة الضباط الخ . . . أو على وسيلة الحصول على الدخل أو على المال اللازم للمعيشة ، كما هى الحال حين نفصل بين فئة الملاك وفئة الأجراء وفئة المضاربين فى البورصة boursicotiers وفئة المحتالين الخ . . . أو على الخلو من الحرفة حين نتحدث عن فئة المتسكعين Les oisifs وغيرها .

من هذا يتضح أن الطبقة الاجتماعية الواحدة تنطوى عادة على فئات اجتماعية مختلفة فطبقة الفلاحين مثلا تضم الملاك الذين يستغلون أملاكهم بأنفسهم والمستأجرين والشركاء والعمال الزراعيين . وطبقة العمال ، تضم عمال المصانع وعمال المناجم وعمال السكك الحديدية وغيرهم .

وقد تنقسم الفئة الاجتماعية بدورها إلى فئات أكثر تخصصاً فتقسم فئة رجال القانون إلى محامين وموثقين ورجال استشارة ومحضرين huissiers . وفئة رجال التعليم إلى أساتذة ومعلمين إلى

غير ذلك . . . كما أننا نميز أيضاً بين رجال التعليم فئة مدرسى التعليم الحكومى ومدرسى التعليم الحر ، أو بين فئة معلمى التعليم الابتدائى وفئة مدرسى التعليم الثانوى أو العالى ، ويقوم التصنيف فى كل مرة على وجهة نظر محددة تستبعد غيرها من وجهات النظر .

وعلى العكس من ذلك فان الطبقة عادة تكون ذات نطاق واسع جداً بسبب تعدد الصفات ووجهات النظر التى تدخل فى تعريفها . وحتى إذا اقتصرنا على النظر إلى الطبقة من زاوية خاصة كما هى الحال حين نتكلم عن الطبقات الفقيرة أو الطبقات المثقفة فاننا ندمج فئات جد مختلفة فى مفهوم واحد .

فالطبقات الفقيرة مثـــلا ، تشمل العمال الكادحين الذين يتقاضون أجراً زهيداً ولا يوفقون إلى وصل طرفى الشهر إلا بشق الأنفس ، كما تشمل المعوزين الذين يعيشون على الإحسان ، أو البوهيميين الذين لا يقر لهم قرار ويفتقرون دائما إلى المال إما لأنهم ينفقون توًّا ما يصل إلى أيديهم من مكاسب أو لأنهم يورطون أنفسهم فى ديون لا يستطيعون لها سداداً . وكذلك الحال فى الطبقة المثقفة فانها تشمل أناساً ينصرفون إلى نواح من الدراسات العقلية تختلف فيما بينها أشد الاختلاف فمنهم الفلاسفة ومنهم المؤرخون ، ومنهم المشرعون ومنهم رجال الأدب ونقاد الفن ، هذا فضلا عن العلوم المختلفة .

وإذا كانت الطبقة تتميز — كما بينا عن الفئة الاجتماعية ، فانها تتميز كذلك عن الطائفة : فالطبقة على عكس الطائفة ليست مقفلة وإذا كان الإنسان منذ ولادته ينتمى بالضرورة إلى طبقة معينة فهو يستطيع أن يرتفع منها إلى طبقة أعلى . أما إن كان ينتمى إلى طائفة معينة فانه يظل ينتمى إليها طول حياته ، كما كانت الحال فى مصر الفرعونية وغيرها من الشعوب القديمة وكما نشاهده حتى الآن فى الهند . ولا يستطيع أحد أن يخرج من طائفته عند الهنود إلا إذا ارتضى أن يتنازل عن الانتماء إليها ليهبط إلى طائفة « المنبوذين » .

وهناك صفة أخرى تميز بين الطبقة والطائفة فى العصور الحديثة وهى أن الطبقة لا تتحدد عن طريق عرف أو قانون وضعى . ولكن الحال لم تكن كذلك فى العصور القديمة عند اليونان أو الرومان مثلا ، حيث ميز القانون بين المواطن الحر والمعتوق والرقيق . وكذلك كان يقسم المواطنون إلى طبقات حسب حالتهم أو ثروتهم لأسباب تتعلق بجباية الضرائب ، أو لأسباب حربية أو سياسية . ففى اليونان إذا صرفنا النظر عن الأرقاء الذين لم يكن لهم حق التمتع بأية حقوق مدنية ، كان التمييز قائما فى أثينا بين المواطنين والأجانب الذين لهم حق الإقامة Les mé èques . وكان قائما فى أسبارطة ، بين المواطنين وسكان البلاد المفتوحة الذين كانوا فى وضع خاص بين الأحرار والرقيق Les périèqu s وبين الأرقاء

Les otes . فمن هذه الناحية كانت الطبقات تنزع فى العصور القديمة نحو نظام الطوائف ومع ذلك فقد ظلت متميزة عنها بمقدار ما كان فى وسع المرء أن يرتفع من طبقة إلى أخرى : إذ كان فى استطاعة العبد أن يتحرر وكان ابن المتحرر يولد حرا . وعند قبائل (الأزتك Les Aztèques) فى المكسيك لم يكن أبناء العبيد يعتبرون عبيدا ، ولكن كانوا يدخلون فى عداد الأحرار منذ ولادتهم وذلك على عكس ما كان قائما عند الشعوب الأخرى وعلى ذلك فلم يصطبغ نظام الرق لديهم بصبغة الطائفية . وعلى هذا النحو كان النظام الطبقى فى روما يسمح بالارتقاء من مرتبة الفرسان L'ordre équestre إلى مرتبة رجال السناتو L'ordre Senatorial .

وفى فرنسا القديمة لم يكن ينظر أبدا إلى رجال الدين والنبلاء ورجال التشريع على أنهم وحدات طائفية . لقد كانوا يؤلفون مراتب حكومية دون شك ، إلا أنها كانت مفتوحة على مصراعيها . فكانت طبقة رجال الدين مفتوحة بحكم طبيعتها لأنها تقوم على نظام العزوبة فلم يكن لعامل الوراثة فيها أدنى نصيب . وكانت طبقة النبلاء أيضا طبقة مفتوحة لأنه ، كان فى الإمكان الوصول إلى مرتبة النبالة بأداء خدمات جليلة فى المجال العسكرى أو المدنى . ونضرب مثلا لذلك حالة « فابير Fabert » جد أحد مرشالات فرنسا الذى ارتقى من عامل طباعة إلى طبقة النبلاء بفضل الخدمات التى أداها للملك وحدث مثل هذا فى حالة أحد الضباط المدعو « شيفير

Chevert فقد وصل إلى رتبة « مساعد كولونيل »[1] وهى أعلى رتبة كان يمكن أن يصل إليها فرد من عامة الشعب فى ذلك الوقت ، ولا يستطيع أن يتخطاها ، ولكن أنعم عليه بلقب النبيل ثم رقى إلى رتبة الكولونيل ، ثم إلى رتبة الجنرال ، كما هو مذكور على قبره فى كنيسة سان اوستاش Saint Eustache بباريس . بل وقد حدث بعد ذلك أن أصبحت رتبة النبالة تشترى بالمال ، إذ وجدت الحكومة — ممثلة فى مصلحة الضرائب — فى ذلك مورداً هاما يمكن استغلاله ولجأت إلى هذه الوسيلة فى أواخر القرن السادس عشر واستمر هذا الوضع خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

---

(١) وهى تعادل رتبة الصاغ فى الجيش المصرى .

الفصل الأول

عوامل الصيت والنفوذ

نستطيع أن نميز فى كل مجتمع طبقات عليا وطبقات متوسطة وطبقات دنيا ، ولكن الدور الاجتماعى الذى تقوم به كل طبقة وأهميتها الاجتماعية والعلاقات المتبادلة بينها تختلف بشكل واضح باختلاف الزمان والمكان .

وقد يكون تفوق طبقة من الطبقات مطلقاً أو نسبياً ، فأحياناً يعزى هذا التفوق إلى النفوذ والصيت والثراء ، كما كانت الحال فى طبقة الأشراف فى روما أو كبار أمراء الإقطاع فى العصر الوسيط . وأحيانا يرجع التفوق إلى الصيت وحده دون قوة أو ثراء ، كما حدث للفنانين فى عصر النهضة فى الجمهوريات الإيطالية الصغيرة ، أو كما نشاهده اليوم فى بقايا طبقة النبلاء العريقة بأوربا التى استطاعت أن تحتفظ بشىء من وضاءتها وعراقتها فى أعين الأغنياء من السياح الأمريكيين ، بل وفى أعين بنات محدثى النعمة بأوربا نفسها .

وإذا كانت الشهرة التاريخية التى ترتبط باسم من الأسماء على أثر الخدمات التى أداها للدولة ما زالت قائمة بالرغم من القوانين

التي ألغت نظام النبالة ، فإن الثروة قد أصبحت مصدرا آخر من مصادر الصيت كما هي حال الملايين من الأمريكيين الذين يلقبون « بملوك البترول » أو «الحديد» مثلا . وقد كانت هولنده في القرن السابع عشر ، البلد الوحيد الذي لا يعرف ألقاب النبل وكانت جمهورية « بورجوازية » يسيطر عليها التجار وأصحاب البنوك ، ولذا كان المال فيها المصدر الطبيعي لكسب الصيت . ومع ذلك فإن الثراء يفقد كثيرا من الاعتبار ، إذا لم يصحبه كرم معقول وطباع رقيقة وثقافة وذوق فني ولا أدل على ذلك مما يجرى على ألسنة الناس من ألفاظ تنم عن السخرية والاحتقار حين يتحدثون عن « محدثي النعمة » أو « أغنياء الحرب » ، وقد كان هذا شعور الناس في جميع العصور .

وهناك نوع من الصيت لا يقام له اعتبار ، إلا في فئات اجتماعية معينة من دون المجتمع في مجموعه . ويروى الكونت دى سيجور de Ségur في هذا الشأن ظاهرة غريبة : فقد لاحظ عدد الخدم الضخم الذي يبعث على الدهشة في روسيا القيصرية ولم تذهب دهشته إلا حين علم أن هؤلاء الخدم الذين ينتزعون من طبقة الفلاحين ينظرون إلى الخدمة في المنازل على « أنها نوع من الارتقاء والحظوة» ويعتقدون أن الزج بهم في أعمال الحقول نوع من العقاب أو التجريد من الرتبة التي حصلوا عليها . فطبقة الخدم إذن كانت

تعد فى نظر هؤلاء الفلاحين طبقة أعلى من طبقة «الموجيك[1]» .

ومن جهة أخرى فإن بعض الطبقات التى تعتبر دون غيرها قد يصبح لها فى بعض العصور نفوذ سياسى أكبر من نفوذ طبقة تعرف بسمو مركزها . ويحدث هذا حين تنعدم العلاقة بين القوة الحقيقية وبين النفوذ الاسمى . فبالرغم من أن النبالة لم تفقد شيئا من نفوذها أثناء حكم لويس الرابع عشر ، وبالرغم من أن كثيرا من البورجوازيين وأولهم « كولبير[2] Colbert » كانوا يطمحون فى الوصول إلى النبالة بالبحث عن أسلاف نبلاء ينتمون إليهم ، إلا أن دوق سان سيمون قد أفصح فى شكوى مرة عن قلقه من « حكم الغوغاء والبرجوازية الخسيسة » وذلك لأن البورجوزاية كان لها فى هذا العهد نفوذ حقيقى يفوق بكثير نفوذ طبقة النبلاء .

الخدمات التى تؤديها المهنة :

على قدر ما تعرف الطبقة الاجتماعية بوظيفتها يكون الصيت الذى تتمتع به منوطا بصيت المهنة . ويمكن رد صيت المهنة

---

(١) كما تطلق كلمة فلاح فى اللغات الأجنبية Feliah على من يعملون فى الزراعة من سكان الريف المصرى ، فكذلك تطلق كلمة Moujiks على الفلاح الروسى الذى يعمل أجيراً . (المترجم)

(٢) رجل من كبار رجال السياسة فى فرنسا فى القرن السابع عشر وابن تاجر أقمشة عينه لويس الرابع عشر فى سنة ١٦٦٤ مراقباً عاما المالية . (المترجم)

إلى مصادر ثلاثة : قيمة الخدمات التى تؤديها والربح الذى يحصل عليه من يمارسها والمشاعر الجمالية التى تولدها فى نفوس من يقدرونها . وعلى هذا الأساس فإن صيت طبقة معينة يتوقف على أهمية ما تؤديه من خدمات ، وعلى ما تدر وظائفها من ربح ، ثم على ما يحيط بها من بريق ينجم عن ممارسة هذه الوظائف .

ويقدم لنا التاريخ من الأمثلة أكثر مما نستطيع حصره فى هذا المجال ، وتاريخ اليونان القديم وحده يعج بهذه الأمثلة : ففى إقليم « بيوشيا Beotie » مثلا حيث كانت الزراعة سائدة كان ينظر إلى هذه المهنة نظرة احترام وتقدير ، على حين أن الصناعة والتجارة اللتين لم يكن لهما نصيب كبير من الانتشار ، كانتا فى نظر الناس مهنتان حقيرتان[1] . وفى طيبة اليونانية كانت عضوية المجالس التشريعية تحرم على التجار لمدة تصل إلى عشر سنوات من تاريخ تركهم مهنة التجارة وعلى العكس من ذلك نجد أن العمل اليدوى فى « كورنثه Corinthe » كان يعتبر من الأعمال المشرفة ، على خلاف ما كان شائعا فى غيرها من المدن اليونانية ذلك أن الزراعة كانت مستحيلة فى هذه المدينة بسبب التربة الحجرية والرياح ، ولأن

---

(١) مازال ملاك الأراضى الزراعية فى الريف ، والموظفون فى المدن عندنا ينظرون إلى المهن اليدوية ، وتجارة التجزئة على الخصوص على أنها مهن حقيرة . أما فى أوربا وأمريكا على وجه الخصوص فإن العامل يحتل من الناحية الاجتماعية ، مركزاً لا يقل عن مركز أى فرد من أفراد الطبقات الأخرى كالموظفين أو المشتغلين بالأعمال الذهنية . (المترجم)

عمليات التصدير الصناعية كانت ضرورية لانتعاش التجارة التى كانت تعيش عليها المدينة ، وكان عدد كبير من العبيد ، بل ومن المواطنين الأحرار يشتغلون بصنع الأقمشة والأثاث والمرايا والأوانى الفخارية الخ . .

فإذا انتقلنا من اليونان القديمة إلى الصين نجد ، أن مجموعة الـ « تشيولى Tchéouli » وهى مجموعة ضخمة من اللوائح ومبادىء الحكم والشعائر والواجبات بأنواعها المختلفة والتى تعتبر الدستور الذى ينظم الحياة الصينية فى أدق تفاصيلها — هذه المجموعة ترتب الحرف المختلفة حسب أهميتها على الوجه الآتى :

(١) الزراع ومنتجو الحبوب .

(٢) زراع الحدائق والأراضى التى تخصص لزراعة الخضروات وأشجار الفاكهة .

(٣) الحطابون ومستغلو الغابات .

(٤) المشتغلون بتربية المواشى والدواجن .

(٥) التجار .

(٦) الزوجات اللاتى ينسجن القنب والحرير ويصنعن الملابس .

(٧) الخدم

وفى أسفل درجات السلم يوضع المتشردون الذين ليست لهم حرفة ثابتة . أما فى القمة فالامبراطور ابن السماء والقطب الأعظم وهو الزارع الأول فى الصين .

ويحدثنا « مومسن Mommsen » أنه كان من المتبع فى روما القديمة — وفى غيرها من البلدان فى مطالع الحضارة — أن ينظر إلى العامل الذى يصنع المحراث أو السيف بعين الاعتبار التى ينظر بها إلى من يستخدم هاتين الأداتين . وكان البون شاسعا بين هذه النظرة ونظرة الاحتقار التى تولدت فيما بعد لكل ما يتصل بالعمل اليدوى والصناعة وهى الحرف التى سماها « رابليه Rabelais[1] » متأثرا برأى أهل زمانه « الحرف المنحطة والآلية » . وقد لاحظ « والتر سكوت » الملاحظة نفسها فى كتابته لتاريخ اسكتلنده : فالحداد الذى ينتمى إلى عشيرة من سكان الجبال الاسكتلنديين كان يعد شخصية على جانب كبير من الأهمية فكان يمثل عادة مرتبة ضابط ثالث فى منزل رئيس العشيرة وكانت مهارته فى صنع الأسلحة والدروع لا تقاس بقوته الجسمية التى تستلزمها هذه المهنة فحسب بل بمهارته فى استخدام هذه الأسلحة أيضا مما رفع من صيت مهنته وأضفى عليها صيتا آخر ذاتيا ذا صبغة جمالية .

وعلى هذا الأساس نرى أن الطبقات تتدرج تبعا للفكرة السائدة عن قيمة الخدمات التى تؤديها كل منها .

---

(١) رابليه (١٤٩٤ — ١٥٥٣) من أشهر أدباء فرنسا فى القرن السادس عشر ، وقد عرض آراءه الإنسانية وفلسفته ونظراته فى الأخلاق فى صيغة تهكمية فى مؤلفه الكبير : « حياة جرجنتوا وبنتاجرول » . المترجم

صيت المهنة عن طريق الثروة التي تجلبها :

بعد أن نظرنا فى حاجة المجتمع إلى مهنة من المهن ، أو بالأحرى فى الخدمات التى يمكن أن تؤديها وبعد أن تبين لنا أن تقدير هذه الخدمات يختلف باختلاف ظروف الحياة الاجتماعية ، وبما يشغل المجتمع من مهام وما يتطلع إلى تحقيقه فى عصر من العصور ، يجدر بنا الآن أن نبحث فى صيت المهنة الذى يأتى عن طريق الثروة لأن الثروة بطبيعتها شيء يعجب به الناس ويتشوقون إليه ، لما تحققه من استقلال وما تتيحه من وسائل المتعة . فالتاجر الغنى له من النفوذ ما ليس للتاجر الصغير الذى يتحايل على المعيشة ، ورجل الصناعة الضخمة يتمتع بصيت أكثر مما يتمتع به الصانع البسيط وصاحب المزارع الشاسعة أكثر من المزارع الصغير ، وقل مثل هذا فى المهن الأخرى . وعلى ذلك فالمهنة يرتفع شأنها فى نظر الناس بقدر ما تجلب من مرتب ضخم أو أرباح وفيرة .

ويظهر صيت الثروة فى شكل أوضح فى الدول التى يتوقف رخاؤها بوجه خاص على الصناعة أو التجارة ، كانجلترا والولايات المتحدة على حين يتضاءل هذا الصيت فى البلاد التى تسود فيها الزراعة كفرنسا ، وخاصة حين تبعث ظروف الحياة على زيادة الإعجاب بالمهن غير المربحة ، كما كانت الحال فى عصر نابليون الأول ، حين كان الناس يتحمسون للانخراط فى سلك الجندية ، وكما كانت الحال فى عصور الحضارة التى كان للنشاط الحربى فيها

من الأهمية أكثر مما للنشاط الصناعي ، كعصر الإقطاع مثلا ، وبالرغم من اتساع حركة التجارة والصناعة بفرنسا في القرن السابع عشر ، فقد تضاءل صيت من أثروا عن طريق التجارة لأن قوة العقائد الدينية وحماسة الإيمان ،أفرغت على رجال الكنيسة سلطة أخلاقية واسعة ، ولأن تواتر الحروب رفع من صيت طبقة النبلاء وهي الطبقة التي كان يقضي عليها منشؤها باصطناع مهنة الحرب . غير أن صيت رجال التجارة كان لابد أن يزداد في القرن الثامن عشر على أثر الديون التي أخذت تتراكم على طبقة النبلاء : إذ ذاك زادت الأهمية الاجتماعية لرجال المال زيادة أكبر فأصبحت بناتهم محط أنظار النبلاء وأخذ هؤلاء يتسابقون في طلب أيديهن للزواج بعد أن أخذ الفقر ينال من سطوتهم . وفي الوقت نفسه أخذ نفوذ العقيدة الدينية يضعف على أثر الضربات القاصمة التي وجهها إليها فلاسفة القرن الثامن عشر ، كما أخذت تنقض بسبب تقدم العلوم بما أضعف من نفوذ رجال الكنيسة وصيتهم ، فأخذ المال يتجه باطراد إلى أن يكون العامل الرئيسي في التفاضل الاجتماعي .

صيت المهنة عن طريق الإعجاب بها :

الشعور بالإعجاب الذي يتولد في نفوس الناس تجاه الذين يمارسون مهنا معينة يكون أما نتيجة لما تتسم به من طابع جمالي ، أو لما تتطلبه من صفات عقلية وخلقية ، فالمهن التي ترتبط بالقذارة وتثير الاشمئزاز ، كمهنة عامل المجاري أو الكناس أو جامع القمامة من

المنازل تعد مهنا منحطة إذا قيست إلى المهن التى لا تسبب تلوث اليدين كأعمال المكاتب مثلا . كذلك الحال فى المهن التى تتضمن طاعة عمياء ولا تتبين فيها روح الابتكار والمبادأة أو استخدام الذكاء، بل تقتصر على مجرد التنفيذ الآلى كمهنة نقل التراب أو مهنة « صبى » البناء . وعلى العكس من ذلك فإننا ننظر نظرة الاجلال والتعظيم للمهن التى تتضمن إدارة ومبادأة وذكاء وعلى الأخص حين تتسم السلطة على الآخرين بالمظهر الحسن والإشارات الأصيلة كما هى الحال فى ضباط البحرية أو ضباط الجيش أو السفراء أو حكام المدن .

وبصرف النظر عن مظهر السلطة الذى يتمثل فى بعض المهن كوظائف الجيش أو القضاء فهناك الذكاء أو الصفات الفاضلة التى تتطلبها المهنة فمهنة الجندية تتطلب الشجاعة ومهنة المهندس أو الأستاذ أو الطبيب تحتاج إلى العلم ومهنة القضاء تتطلب النزاهة ومعرفة القانون كما أن وظيفة الدبلوماسى تتطلب الحذق ودقة الحس والاهتمام بمصالح الوطن . وفى كل زمان ومكان تضفى المعرفة والمواهب والصفات العقلية والخلقية والتربية العالية على أصحابها الصيت بدرجات متفاوتة . ويقول لنا « جورج هاردى Hardy » فى هذا الصدد أن الزنوج فى أفريقيا يميزون بين « الرجال الممتازين » والرجال العاديين ، وهو نفس التمييز الذى كان قائما عند الرومان بين كلمتى honestiores (الطيبون) و humiliores (الوضعاء)

وبين كلمتى (النبيل) noble و (الخسيس) vilain فى العصور الوسطى وهو تمييز يقوم على اختلاف الهندام والتعبير ونوع العواطف ودرجة الذكاء .

ثم أن المعارف الخاصة والمهارة الفنية فى المهن التى تتطلب قدرات معينة أو براعة لها تأثير مماثل فى نفوس الناس . فعمال الكهرباء يعتبرون أنفسهم أعلى من الميكانيكيين وهؤلاء ينظرون إلى السواقين ومساعدى السائقين على أنهم أحط منهم بكثير .

وبالإجمال فإن المهن التى تقتضى كثيرا من انكار الذات أو التى تنمى فى النفس الفضائل النبيلة والاهتمام بالصالح العام واسداء الخدمات للآخرين والأمانة ينظر إليها بوجه عام على أنها أعلى من غيرها وخاصة إذا قورنت بالمهن التى تنمى فى النفس حب الكسب وروح الخبث والتدبير الذى لا يعرف شفقة ولا يخضع إلا للبواعث المغرضة . ولهذا السبب كانت التجارة تعتبر فى غالب الأحيان مهنة لا تليق بالنبلاء ، وذلك فى العصور التى كان يدعى فيها أفراد هذه الطبقة لاحتلال أعلى المراكز فى الدولة . وفى روما القديمة كانت التجارة محرمة على أعضاء مجلس الشيوخ (السناتو) كما كانت محظورة فى فرنسا القديمة على طبقة النبلاء وكان العرف يسمح للرجل النبيل بأن يستغل مزارعه وأراضيه ، ولكن لا يسمح له بأن يثرى على طريق المضاربة فى سوق المواشى . وقد جرد

نبيل نورماندى من رتبته فى القرن السادس عشر لأنه كون ثروة عن طريق تغذية الأبقار وتسمينها ثم بيعها . ولم يكن استهجان هذه الأعمال راجعا إلى طبيعة العمل نفسها بل إلى ما يولده من روح الجشع التى من شأنها أن تحول طبقة النبلاء عن فضائلها التقليدية التى اكتسبتها كما أكسبت مملكة فرنسا فى ذلك الوقت تلك القوة التى كانت تزهو بها .

وهناك شكل آخر من أشكال الصيت ذو طبيعة خاصة ونعنى به ذلك الصيت الذى كانت تتمتع به طبقة الكهنوت فى جميع الأقطار يوم كان للدين مكان مرموق . ومن أمثلة هذا الصيت ما تتمتع به طائفة البراهمة فى الهند . إذ تقول قوانين « مانو Manou » إن البرهمى البالغ من العمر عشر سنوات والمحارب « كشاتريا kshattriya » الذى شارف عمره المائة سنة يجب النظر إليهما على أنهما والد وولد على أن يكون الوالد من بين الاثنين هو البرهمى وأن تقدم له فروض الاحترام على هذا الاعتبار وما ينطبق على رجال الدين فى نظام الطوائف ينطبق عليهم كذلك فى نظام الطبقات . وأمامنا مثال لذلك فى السلطة التى كان يتمتع بها رجال الدين فى أوربا خلال العصور الوسطى . ومن الميسور فى هذه الحالة أن يصبح الصيت المنبعث عن السلطة الروحية عاملا للاستحواذ على الثروة والقوة .

فالسلطة والصيت يترتب عليهما إذن إرساء قواعد نظام مثالى

للتقدير والاحترام فى المجتمع وقد يرتبط هذا النظام أحيانا بالقوة أو يكون السبب فى وجودها أحيانا أخرى : لكنه على كل حال نظام يعبر عن التفوق الذى يقوم على العقيدة والرأى العام والعاطفة أى أنه نظام يعبر عن وجهة نظر ذاتية . وهذا التفوق ذو الطابع الذاتى يوجد جنبا إلى جنب مع تفوق من نوع آخر ونعنى به ذلك التفوق الموضوعى الذى تتيحه الثروة والقوة الغاشمه بصورة واقعية وفعلية لاشأن لها بالسلطة أو الصيت ولا بالتقدير الذى يتبعهما . وهذا النوع من القوة — القوة الحقيقية للثروة والعدد والسلاح — هو الذى يجب أن نبحثه الآن .

قوة السلاح :

ربما يكون أوضح مثال يقدمه لنا التاريخ عن الطبقة التى تدين بسيطرتها إلى قوتها الحربية طبقة الإقطاعيين — فقد فرض أسياد الإقطاع سيطرتهم فى الواقع عن طريق حمايتهم للطبقات المضطهدة أو التى كانت مهددة بعدو خارجى أو بعسف إدارة طاغية . إذا أنه عندما سادت الفوضى فى الامبراطورية الرومانية المتأخرة بسبب الغزوات المتوالية التى كان يشنها عليها البرابرة استطاع كبار الملاك الزراعيين أن يسلحوا أتباعهم وعبيدهم بحيث أصبحوا فى حالة تمكنهم من الصمود أمام العصابات المسلحة التى كانت تنهب المنازل وتفتك بالقرى . كما استطاعوا أن يحموا أتباعهم من إرهاق الضرائب أو عسف حكام الأقاليم . وفى هذا الوقت أى فى العصور

الوسطى حين كانت غزوات النورمانديين والمجر تتوالى على أوربا حاملة الخراب والدمار كان من الطبيعى أن يلجأ سكان الأقاليم إلى وضع أنفسهم فى حماية فارس من زعماء الإقطاع وأن يحتموا خلف أسوار قلعته الحصينة . وقد وصفت إحـــدى الملاحم الفرنسية فى العصور الوسطى المسماه « أغانى البطولة Chansons de gestè » هذه الحالة فى تلك العبارة « الناس بدون سيد (أو أمير إقطاع) لايقر لهم قرار » وهكذا أصبحت قوة السلاح الغاشمة التى كانت فى الأصل تلعب دور الحماية مصدرا للسلطة والصيت .

قوة المـال :

وتأتى قوة المال بعد قوة السلاح . وإذا كانت القوة الغاشمة هى المظهر الوحيد للسيطرة المجدية فى أزمنة ساد فيها الاضطراب كما كانت الحال فى عصر الأمبراطورية الرومانية المتأخرة ومطلع العصر الوسيط فان الثروة قد أصبحت فيما بعد وسيلة هذه القوة وذلك فى العصور التى ساد فيها النظام والاستقرار الضروريين للعمل . إذ عندما يجمع الرأى العام على احترام الملكية ويتأكد لمن يملكون الحق فى الاستمتاع بأملاكهم ، بجد أن الحاجة إلى المال تدفع الدولة أو تدفع الزعمـاء الذين يسيطرون على زمام السلطة الزمنية إلى إرضاء مطالب الطبقات الغنية ورغباتها . لذلك لم يتردد لويس الرابع عشر فى أن يضع حدائق فرساى تحت طلب

رجل المال « صمويل برنار » وذلك عندما أراد أن يعقد معه قرضا يسد به مصروفات الدولة الباهظة .

وتكون الثروة كذلك مصدرا للقوة ، إذا نظرنا إليها من زاوية أخرى ، فهى إذ ترفع عن كاهل الذين يملكونها عبء السعى من أجل القوت اليومى ، وإذ تيسر علاقاتهم بمن يستطيعون إسداء الخدمات فانها تساعد فى الوقت نفسه على إنماء الذكاء ودقة الحس لدى أصحابها ، إذ تتيح لهم الاختلاط بالنابهين من الناس ذوى الثقافة والتربية الرفيعة وبالشخصيات التى تمثل مراكز عليا أكسبتها خبرة وفيرة ، ومن جهة أخرى فان الثروة تمكن صاحبها من السفر والتنقل ، وفى ذلك ما يزيد اطلاعه وخبرته ويجعله يتفوق فى هذه الناحية على من يضطرون لكسب العيش إلى القيام بأعمال تافهة . وهى لهذا الاعتبار بالذات تجعل من يحسنون استخدامها قادرين على أن يصلوا إلى أعلى المناصب وأن يحتلوها عن جدارة وأن يصبحوا مستشارين سياسين لرجال الحكم ، وأن يدافعوا عن حقوق مواطنيهم إذا اختارهم هؤلاء لهذه المهمة من هذا نرى أن الطبقات الغنية والمثقفة تتمتع بقوة حقيقية فى الدولة .

وقد حدث فى بعض العهود ، وخاصة فى تلك التى يكن لم فيها جيوش نظامية كما كانت الحال فى العصور الوسطى — حدث أن مكنت الثروة لطبقة كانت من قبل قليلة النفوذ بل محتقرة من أن

تظفر بأسلحة ،وأن تنظم نفسها في جيش إقليمى (ميليشيا) أو تكوّن بواسطة المال جيشا من الجنود المرتزقة . وعلى هذا النحو استطاع عامة الناس أن يصمدوا أمام النبلاء ،وأن ينتزعوا منهم حقوقا هامة، واستطاع سكان حى « السيتى » فى لندن أن يقاوموا شارل الأول ويمدنا التاريخ بمثال آخر من هذا النوع ، حدث فى الجمهوريات الايطالية فى العصور الوسطى ؛ فقد مهر سكان هذه الجمهوريات فى الفنون الصناعيه ، وحذقوا فن صناعة الصلب والبرونز والحديد والحرير والزجاج الخ . . . ثم أثروا من طريق بيعهم مقادير كبيرة من السلع الكمالية ، هذا فى الوقت الذى أصبح فيه تجار جنوا وبيزا وفلورنسا والبندقية سادة البحر الأبيض المتوسط ،وأخذوا يزودون أوربا بمنتجات الشرق ،كما أخذ رجال المصارف فى لومبارديا يوسعون معاملاتهم المالية مع البلاد الأجنبية . إذ ذاك استحوذت هذه الطبقات التى ارتفعت عن طريق التجارة على الحكم وأبعدت النبلاء فى عدد من المدن . وفى الأراضى المنخفضة (هولندة) وكذلك فى مدن التحالف التجارى (فى العصور الوسطى) وهى برمن ولوبك وهامبورج ،وأيضا فى انجلترا حدث تطور من نفس النوع ،إذ ساعد التقدم الصناعى على تأسيس الأنظمة الحرة وذلك بخلق طبقة جديدة من التجار الأغنياء .

قوة العدد :

والعدد مصدر ثالث من مصادر القوة والنفوذ ، متى توافرت شروط خاصة ، والواقع أن العدد فى ذاته ليس مصدر القوة وكم فى التاريخ من جيوش قليلة غلبت جيوشا كبيرة لأنها أحسن تسليحا وتنظيما ، ولأنها تفضلها فى القيادة والتدريب والشجاعة . بل يرينا التاريخ كيف كان بعض القادة يضاعفون من قوة جيشهم بتسريح جزء من جنودهم أو يفعلون كما فعل « أوجست » فى موقعة « اكتيوم » حين أراد أن يعطى لأسطوله فرصة التحرك فى خفة وسرعة فأمر بتدمير بعض القطع التى كانت تعوق التجانس بين وحدات الأسطول — فالعدد الكبير لا يتفوق على العدد الصغير إلا بالتنظيم ورجحان ما لديه من وسائل . وهناك أسباب كثيرة فى التاريخ جعلت فى الإمكان تنظيم طبقات كثيرة العدد وإنجاح مشروعاتها . ومن هذه الأسباب الاندماج الذى ساعد عليه التقدم الشامل للحضارة الصناعية . والحاجة إلى هذه المجموعات الكبيرة فى الناحية الحربية وكذلك فى الناحية الاقتصادية . ومنها نشأة تنظيمات سياسية عملت على ازدهار هذه الطبقات الشعبية .

على هذا النحو أصبحت قوة الطبقة العاملة كبيرة جدا فى الديموقراطيات الحديثة ، وفى فرنسا على وجه الخصوص ، وكان ذلك على أثر إنشاء المصانع الكبيرة التى تضم ألوفا من العمال يستطيعون

التسامح والتدارس والتفاهم وتكوين اتحادات ونقابات قوية حتى أصبح الاتحاد والتضامن بين فئات طبقة العمال عنصرا أساسياً من عناصر قوتها .

وفى الوقت نفسه فان أهمية الدور الذى تلعبه المصانع والسكك الحديدية فى زمن الحرب ، قد أدى إلى النتيجة نفسها، وهى ازدياد قوة العمال وقد زاد من هذه القوة فى زمن السلم أهمية المنتجات الصناعية فى تزويد الدولة بحاجاتها المادية .

وحين شعرت طبقة العمال . بأهمية الخدمات التى تؤديها للمجتمع بأسره سواء فى زمن الحرب أو فى زمن السلم، وقدرت الخطر الذى توقع الدولة فيه إذا الجأت إلى الإضرابات العامة، أصبحت تؤثر تأثيراً كبيرا فى قرارات الوزراء وفرضت نقابات العمال وكذلك نقابات رؤساء الأعمال أرادتها على الدولة بسبب قوتها الاقتصادية . وكان نفوذها فى الهيئات التشريعية نتيجة لهذه القوة فى الميدان الاجتماعى .

وأخيراً فإن تقرير مبدأ الاقتراع العام الذى طالما طالبت به الطبقات الكثيرة العدد ، قد أدى إلى نفس النتيجة إذ تمكنت القوة العددية لطبقة العمال عن طريق « الاتحاد العام للعمل » من اكتساب أصوات الهيئة التشريعية إلى جانبها ،وإصدار التشريعات التى تناسبها فناهضت بذلك النفوذ البرلمانى والتشريعى لكبار رجال الصناعة وأصحاب البنوك .

قوة الفكر :

وهناك شكل آخر من أشكال النفوذ يتمثل فى الفكر ووسيلة التعبير عن الأفكار ، هى الكتابات والكتب والنشرات والجرائد، أو الخطب والمواعظ والمحاضرات والندوات الخ . . . ويستطيع الفلاسفة والمؤرخون والكتاب والوعاظ والصحفيون أن يخلقوا أو أن يدعموا بعض التيارات الفكرية والعقائد، وهى فى ذاتها قوة يتفاوت حظها من التأثير تبعا للظروف ومجـــريات الحوادث ولهذا السبب قيل إن الأفكار تقود العالم . لكنه قول لا يصدق إلا فى تحفظ ، لأننا نستطيع كذلك أن نقول مع «مالبرانش» إن[1] الفكرة المحضة لا تحرك حتى جناح بعوضة . والواقع أن الأفكار لا تصبح ذات قوة إلا إذا تناغمت مع عواطف الناس وحاجاتهم وما يتطلعون إليه فى عصر معين فإن لم تكن كذلك كانت عديمة القوة ومع ذلك يجب أن نعترف بأن الأفكار إذا كانت صادقة وخيرة أتيح لها أن تذيع وأن تتغلغل شيئاً فشيئاً فى العقول ، وخاصة متى برئت من أن يناقض بعضها بعضا ولقيت من الواقع ما يؤيدها على الدوام . وعلى العكس من ذلك فان الأفكار الخاطئة مهما كان نصيبها من الذيوع فترة من الزمن فانها تنتهى حتما بالتناقض فيما بينها

(١) مالبرانش (١٦٣٨ — ١٧١٥) فيلسوف فرنسى من فلاسفة القرن السابع عشر اهتم بمناقشة علاقة الروح بالجسد وكانت فلسفته قائمة على التفاؤل ونظرياته الخلقية على فكرة النظام ، أشهر مؤلفاته : « البحث عن الحقيقة » Recherche de la Verité . (المترجم)

ولا تلبث الحوادث أن تكذبها إن عاجلا أو آجلا . وهكذا فإن ما يتضمن التناقض لا يلبث أن يتلاشى أمام التفكير وأن ما يتنافى مع الواقع لا يلبث أن تهدمه التجربة . وبناء على هــذا تستطيع الطبقات المثقفة أن تغير من اتجاهات الرأى العام أو تخلق تيارات جديدة من الشعور والفكر .

وقد أدت القوة الحقيقية للرأى العام وما يقوم عليه من أفكار وعواطف ، أدت إلى توجيه الحكومات إلى الاهتمام به ، وحفزها إلى استخدام جميع الوسائل التى تملكها للتأثير فى العقول. ففى فرنسا اهتم ريشيليو بالتأثير فى الرأى العام حــين منح « ثيوفراست رينودو Théophraste Renaudot امتياز إنشاء جريدة « الجازيت La gazette » . وألغى نابليون الأول كل الجرائد ولم يترك إلا واحدة تنطق بلسانه وتؤيد سياسته وهى « ناصح الأمبراطورية moniteur de l'Empire » . وفى عصور مختلفة وخصوصاً فى أوقات الحروب أو الثورات كانت تفرض رقابة تتفاوت شدتها على المطبوعات بجميع أنواعها، وعلى الصحف اليومية بصفة خاصة . وفى نفس الوقت اتسع نطاق الدعاية الرسمية بطريق الصحافة والإذاعة ، وكذلك بطريق السينما أحيانا . وبإغداق المنح على بعض الصحف من الأموال السرية، ومنح النياشين والألقاب للصحفيين الموالين ، تهدف الحكومات الديموقراطية — حتى أشــدها دعوة

إلى الحرية — إلى نفس ماتهدف إليه الحكومات المستبدة فلا تأذن إلا بصحافة رسمية تعبر عن سياسة الزعماء الذين فى كراسى الحكم .

ويجب أن نلاحظ كذلك أن التأثير الروحى للكتاب ، لا يخضع لقيود الحكومة وتوجيهاتها فحسب ، بل يخضع أيضا للناشرين ومديرى الصحف ، وقد ترتب على اصطباغ الأدب والصحافة بالصبغة التجارية نفس النتائج الضارة التى ترتبت على فرض الرقابة ، وأصبح بذلك تأثير الطبقات ذات الثقافة الممتازة والتى تستطيع أن ترتفع بالمستوى العقلى والخلقى للدولة ضعيفاً أو كأنه معدوم . ولكن مما يخفف وقع هذا الضغط نوعا ما ، كثرة المطبوعات وتنوعها مما أتاح لجميع الآراء أن تفصح عن نفسها ، وكذلك وجود بعض الناشرين ذوى الرأى المستنير الذين يهتمون بالصالح العام ويستقلون فى تصرفاتهم عن التوجيه الحكومى .

توقف النفوذ على حسن استعمال القوة :

إن جميع أشكال القوة التى أحصيناها ، يتولد عنها نوع من النفوذ والهيبة كما أن النفوذ بجميع أشكاله يتولد عنه القوة . ولكن ذلك النفوذ الراجع إلى القوة قد يتعرض للخطر أو التجريح ، تبعا للطريقة التى تستخدم بها هذه القوة . فالسلوك السيء أو الأعمال الاجتماعية الضارة ، إذا صدرت ممن يقبضون بيدهم على القوة العسكرية أو الثروة ، أو القوة العددية ، أو المواهب الأدبية والخطابية ،

أووسائل نشر الأفكار ، فإنها تباعد بينهم وبين عطف الرأى العام وتقلل من الإعجاب بهم ومن التقدير أو الاحترام الذى يشعر به الناس عادة إزاء الطبقات الممتازة .

على هذا النحو ، فقدت طبقة النبلاء نفوذها الأدبى وما تتمتع به من صيت ، بعد أن كانت موضع الإعجاب والاحترام يوم كانت تقوم بأعمالها العسكرية والإدارية على وجه مشرف يدعوها إلى الفخار ذلك أن الامتيازات التى كانت تتمتع بها غدت فى يوم ما لا تتناسب مع الخدمات التافهة التى اقتصر أفراد هذه الطبقة على تأديتها للدولة ، وأنهم انصرفوا إلى نوع من النشاط المثير أوقع الدولة فى الفوضى ، والحكومة فى اضطراب . وقل مثل هذا الأمر فى الفئات العليا من طبقة البورجوازية وهى الفئات التى كانت تسيطر على الصناعة والبنوك ، فقد كانت هذه الفئات موضع التقدير لنشاطها وروحها الوثابة التى كانت تدفعها للقيام بالمشروعات وابتكاراتها المثمرة . ولكن هذا التقدير انقلب إلى نقمة حينما انصرفت إلى تحقيق الكسب لنفسها وضعف اهتمامها بواجباتها نحو الطبقات الأخرى ونحو الدولة .

ويمكن القول إلى حد ما أن أسبابا من نفس النوع ، هى التى جعلت الطبقة العاملة لا نفوذ لها حتى اليوم بالرغم من أنها أصبحت طبقة قوية بفضل اتحادها وأهميتها العددية ، وحاجة المجتمع إلى خدماتها . وذلك أن الاضرابات المتكررة والتى لا مبرر لها ، والتى تحدث لأسباب سياسية أكثر مما تحدث لحاجات حقيقية ، كان من شأنها أن تضعف الثقة بهذه الطبقة . وهذه فى الواقع ظاهرة لها

دلالتها . فني الوقت الذى بلغت فيه قوة الطبقة العاملة أقصاها ، كانت سمعتها الأدبية تهبط إلى الحضيض . ولنرجع قليلا إلى الوراء لنرى ماذا حدث أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤—١٩١٨ . لقد كان الزراع وأصحاب المهن الحرة يضحون بأرواحهم فى جبهة القتال وكانوا ينظرون بطبيعة الحال بعين ساخطة إلى العمال الذين كانوا يربحون ١٠٠ فرنك فى اليوم ، وهو أجر ضخم فى ذلك الوقت ، من صناعة القذائف فى المصانع ، دون أن يعرضوا أنفسهم للخطر .

ومع هذا فقد دأب العمال منذ ذلك الحين على القيام بحركات الإضراب فى المصانع التى تعمل للدفاع الوطنى ، وبخاصة فى مصانع الطيران بينما كانت ألمانيا ذات البأس الشديد تستعد لحرب جديدة. بمثل هذه التصرفات كانت طبقة العمال تبرر فى كثير من الأحيان الكلمة التى وصفها بها « رينان Renan » وهى أنها أكثر الطبقات سعيا وراء المصلحة الذاتية ؛ فكثيرا ما ظهرت هذه الطبقة غفلا من الوطنية ، عطلا من الوازع الخلق ،تتأهب على الدوام للقيام بأعمال العنف بتأثير من يدفعونها من زعمائها ، وحين يتأكد لها إفلاتها من العقاب . وقد كان احتلال المصانع ، واعتقال المهندسين والرؤساء ، وحجزهم ، والاعتداء على الزملاء الذين يرفضون مشاركتهم فى الإضراب ، كانت كل هذه التصرفات سببا فى سخط الرأى العام عليهم . وعلى العكس من ذلك فقد ، استطاعت طبقة العمال ذاتها أن تسمو فى نظر الرأى العام ، حينما هداها التعقل إلى رفض الإضراب العام الذى كان يحرضها عليه الصائدون فى الماء العكر ، والذى كان

يمكن أن يتمخض عن نتائج غاية فى الخطورة ، بسبب ما كانت تعانيه البلاد من الخراب من جراء الحرب والاحتلال الألمانى .

وهكذا يمكن القول ، بأن أى طبقة تستطيع أن تسىء إلى سمعتها بتصرفاتها السيئة ، أو إهمالها أو جشعها ، وتستطيع على العكس أن تضاعف ما تنعم به من صيت بالخدمات التى تؤديها ، وبما تظهره فى تصرفاتها من إخلاص للصالح العام ، وبالاعتدال الذى تراعيه عند ممارستها لقوتها .

ومن جهة أخرى ، فإن النفوذ الذى تستمده طبقة من أحد العوامل السابق ذكرها وهى القوة العسكرية أو الثروة أو العقيدة الدينية الخ . . يمكن أن يحتجب أو أن يضعف نتيجة لنفوذ أكبر وأظهر ، تستمده طبقات أخرى من مصدر آخر . وللتمثيل لذلك نقول :

إنه منذ القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر ، لم تتوقف قوة البورجوازية عن الصعود المستمر جنبا إلى جنب مع ازدياد السلطة الملكية ، فقد كان أهم وزراء شارل السابع من أمثال الأخوة « بيرو Bureau » و « جاك كير » Jacques Coeur من الشعب . وأحاط لويس الحادى عشر نفسه طوعا بأفراد من الطبقات الصغيرة نذكر منهم « أوليفيه الغزال Olivier le Daim » حلاقه الذى أعدم شنقا فى عهد شارل الثامن . وكان النظار les intendants الذين أوجدهم ريشيليو للحد من سلطة النبلاء يعينون فى معظم الحالات من بين أفراد الشعب وكذلك

كانت حال المفوضين المساعدين الذين كانوا بالنسبة للنظار كمساعدى الحكام بالنسبة لحكام المدن . وفى عهد لويس الرابع عشر ، لم يكن كولبير الوزير الذى اشتهر بأعماله العظيمة من طبقة النبلاء ، ومع ذلك فقد ظلت البورجوازية بالرغم من هذه الميزات ، لا تتمتع بنفوذ بين أفراد الشعب ، لأن رجال الكنيسة والنبلاء كانوا ما يزالون يحتفظون بنفوذهم . وقد كان احتجاب نفوذ البورجوازية وراء طغيان هاتين الطبقتين عليها هو السبب الذى دفع « سرفان servan » إلى القول فى مؤلفه بعنوان « دراسة لتاريخ الثورات »[1] بأن الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ قامت بها البورجوازية للنيل من رجال الكنيسة والنبلاء وكان سببها الرئيسى هو الغرور والحسد .

وبالمثل فقد حدث على أثر ازدهار الفلسفة والعلم ، بعد ظهور آراء ديكارت ونيوتن ، أن أصبح المفكرون والكتاب يتمتعون بصيت كبير فى القرن الثامن عشر ، بما أضعف من صيت رجال الكنيسة الذين ظلوا أحقابا طويلة أكثر الطبقات علما وثقافة . وقل مثل هذا فى رجال القضاء الذين كان يطلق عليهم اسم (نبلاء الرداء) فقد أصبح لهم من الخطر ما أضعف نفوذ النبلاء العسكريين . وقد حدث بعد ذلك بقرن واحد أن أصبح كبار رجال الصناعة

---

(١) Essai sur les Révolutions

ورجال البنوك ، يتمتعون بصيت لم يعرفوه من قبل بسبب تقدم التجارة والصناعة ونظام الائتمان . وفى زمن الحروب التى قام بها نابليون ، كان للعسكريين صيت أعظم من صيت الكتاب ، ثم انقلب الحال إلى عكس ذلك فى عهود السلم ، تحت حكم لويس الثامن عشر وشارل العاشر ولويس فيليب .

ومجمل القول أن الخدمات التى تؤديها كل طبقة للمجتمع ودرجة اعتراف الرأى العام بقيمة هذه الخدمات هى التى تمنح الصيت والنفوذ لهذه الطبقة أو تلك . أما الثروة أو الثقافة أو القوة العسكرية فكلها عوامل للنفوذ تقدر من ناحية منفعتها الاجتماعية إلى جانب الإعجاب بها والتطلع إليها لذاتها .

الفصل الثانى

تكوين الطبقات

يحدث تمايز الطبقات داخل نطاق الجماعات المختلفة، كالقبيلة أو المدينة أو الدولة، تحت تأثير ظروف متباينة، ولأسباب جد مختلفة.

ويمكن القول بوجه عام، أن تقسيم العمل الاجتماعى، وهو ظاهرة عامة بالنسبة لجميع المجتمعات، له نصيب كبير فى هذا التمايز الطبقى: فتنوع الحاجات الاجتماعية، وتوزيع الأعمال الضرورية، لإرضاء هذه الحاجات توزيعا تلقائيا أو مفروضا، يؤدى بالضرورة إلى تمايز بين الأفراد بحسب اختلاف الأعمال. ولا شك أن العمل لتوفير الغذاء، وبناء المساكن، وصنع الأسلحة والأوانى وأدوات العمل، ونسج الملابس، كل هذه الحرف المختلفة تكفى لإيجاد التفرقة بين الزراع والصناع، وهذا إذا قصرنا النظر على المجتمعات التى لم تتقدم فى الحضارة إلا قليلا. أما حين يتعقد نظام تقسيم العمل فإنه يؤدى إلى ازدياد عمليات التبادل التجارى ثم يؤدى بعد ذلك إلى نظام الدفع على آجال: وحينئذ تنشأ فئات اجتماعية جديدة فبجانب الزراع والصيادين والحدادين والبنائين وصانعى الفخار، يظهر التجار ورجال البنوك الخ... وهذه الفئات المختلفة لا تلبث

بدورها أن تكون طبقات على أساس التشابه أو التضاد ، فى نوع حياتها ومصادر ثروتها ودرجة ثقافتها وتعليمها .

ويمكن القول بوجه عام أن تنوع الوظائف داخل نطاق المجتمع، يهيمن على تكوين الطبقات : إذ تقوم الطبقات العاملة بإرضاء الحاجة الأولية التى تتصل بتوفير أسباب المعيشة المادية ، وتقوم الطبقة العسكرية على الوفاء بحاجة الدفاع ضد العدو الخارجى ، وتستجيب الطبقات الحاكمة أو الإدارية للحاجة إلى التنسيق بين الرغبات المختلفة ، وإيجاد التوازن بين المصالح المتباينة ، بحيث يستتب النظام والسلام فى الداخل . وعلى هذا الأساس يكون تقسيم المجتمع إلى طبقات نتيجة للضرورات الحيوية . أى أن هذا التقسيم ينبع من إرادة الحياة عند كل جماعة .

ثم تأتى الظروف الخاصة بعد ذلك لتنسج أشكالا مختلفة حول هذه القاعدة الأساسية التى تشترك فيها جميع المجتمعات . ولذلك فإن التاريخ يقدم لنا بالنسبة لتكوين الطبقات قائمة حافلة تصور لنا إلى أى حد اختلفت الطبقات وتباينت من شعب إلى شعب ومن عصر إلى عصر .

علاقات التبعية :

وأول صيغة من صيغ تكوين الطبقات تنحصر فى نشأة علاقات التبعية بين رجل وآخر ، أو بين أسرة وأخرى . ونحن نجد

مثالا لتلك التبعية فى العصور القديمة حيث كان التمييز قائما فى روما بين الأشراف les patriciens ومواليهم les clients . فقد كان الأشراف يكونون أسراً تتجمع فى وحدة اجتماعية تحت زعيم أعلى هو «عاهل الأسرة Pater Familias » ، وكان يعد بالنسبة للموالى كصاحب العمل le patron بالنسبة للعمال اليوم . وفى الواقع كانت تتركز فى يده جميع السلطات : فهو الكاهن والقاضى والمشرع والقائد العسكرى فى وقت الحرب ، وهو الذى يدير أملاك المجموعة العائلية أو الأسرة الكبيرة (gens) كما أن له حق التصرف المطلق فى مصير أفراد الجماعة ، بحيث يمنح الحياة أو يحكم بالموت ، كما يشاء على أى عضو من أعضائها ، بما فيهم الموالى والعبيد ، وهو الذى يتزعم مراسم وطقوس الديانة العائلية ويقدم القرابين أمام قبر الأسلاف ، وهو الذى يقدم فى — حالة النفير ، وفى الميعاد الذى يحدده له حكام المدينة — رجال الأسرة القادرين على حمل السلاح (Sua manus).

والشريف سواء أكان ينتمى إلى الفرع الأكبر أو إلى الفروع الصغيرة فى الأسرة ، يصل دائما إلى مركز « العاهل أو الزعيم » ويعد حينئذ جدا مقدسا تبتهل إليه الأسرة فى صلواتها . وفى حالة انقراض الفرع الأكبر يصبح فى مقدور عضو من فرع صغير أن يكون رئيسا للأسرة أو زعيما للمجموعة العائلية ، ويحق له بمقتضى ذلك أن يدير أملاك الأسرة الجماعية . أما فيما يتصل « بالمولى » فالأمر يختلف كل الاختلاف فهو مهما صعد فى أصول نسبه فلن يجد بين أسلافه غير « موالى »

أو « عبيد » . وله أن يزرع أراضى الأسرة بوصفه وكيلا دون أن يكون له أى حق للملكية عليها . « وينص القانون الرومانى على أن المولى يجب أن يدفع مهرا لابنة رئيسه ، ويجب أن يسدد إليه مايفرض عليه من غرامة ، كما يجب أن يقدم فديته ، ويسهم فى نفقات زعمائه ، أما من الناحية الدينية فليس لطبقة الموالى عبادة خاصة بهم ، فهم يحضرون الحفلات الدينية الخاصة بعبادة الأسرة التى ينتمون إليها ، دون أن يكون لهم الحق فى رياسة أحدها . وإذا تلاشت الأسرة فإن الموالى — كما يقول فوستيل دى كولانج[1] Fustel de coulange « لا يستطيعون الاستمرار فى إقامة شعائرها ، بل يتفرقون ويلتحقون بأسر أخرى ، لأن الديانة العائلية ليست تراثهم ، وهى لا تتصل بدمهم ، أى أنها لم تنحدر إليهم من أسلافهم . لقد كانوا يدينون بها عن طريق الاستعارة وينعمون فى ظلها ، ولكنهم ليسوا أصحابها » .

ونستخلص من ذلك أن طبقة الموالى لا يمكن تعريفها إلا عن طريق علاقات التبعية التى تربطها بطبقة الأشراف . والروابط التى تربط الموالى بالأشراف تمثل تبعية أسرة لأسرة أكثر مما تمثل

(١) مؤرخ فرنسى (١٨٣٠ — ١٨٨٩) . أشهر كتبه كتاب — المدينة القديمة La Cité Antique — الذى ترجم إلى العربية ، وكتاب — تاريخ النظم السياسية فى فرنسا القديمة — اشتهر بتحريه المنهج السليم والحقيقة فى كتاباته . (المترجم)

تبعية رجل لرجل ، لأن « عاهل الأسرة » ليس له من سلطان عليهم إلا بوصفه زعيما للأسرة الكبيرة .

ولكن الأمر يختلف عن ذلك بين الأسياد والطلقاء . فالسيد الذى يعتق عبده يظل يحتفظ ببعض الحقوق عليه ، ويظل العبد طوع أمره « لأداء بعض الخدمات التى يحدد نطاقها السيد وحده » . وللسيد حق العدالة على العبد : فهو يستطيع أن يعيده إلى الرق لو اتهمه بالجحود . وهو كالمولى فى النظام السابق يظل مرتبطا بالأسرة ويحمل اسمها . والفرق بين النظامين أن لقب المولى ينتقل من الأب إلى الابن ، على حين أن حالة المتحرر ليست قابلة للتوريث بل تتلاشى فى الجيل الثانى أو الثالث على الأكثر .

وفى عهد الأسرة المروفنجية[1] ، تكونت كذلك طبقات وفقا لنظام التبعية بين رجل ورجل ، ولم تكن هذه الطبقات رواسب لأنظمة التبعية القديمة بين السيد والعبد أو بين المتحرر ورئيسه فحسب ، بل نشأت أيضا على أساس التبعية الإرادية من جانب أحد المحاربين لزعيم يختاره اختيارا حرا (comitatus) ثم حل محل التمييز القديم بين الأحرار من جهة والمتحررين والعبيد من جهة أخرى تمييز آخر أساسه رابطة التعاقد وهذا النوع من العلاقات

---

(١) نسبة إلى مروفيه Mérovée وهى أول أسرة مالكة تولت الحكم فى فرنسا فى القرن الخامس الميلادى ؛ (المترجم)

هو الذى ساد بعد ذلك فى نظام الإقطاع وربط بين صاحب الإقطاع suzerain وتابعه vassal .

ومن هنا يمكن القول أنه ساد فى الأزمنة القديمة التمييز بين مجموعتين كبيرتين مجموعة التابعين ، وتشمل أنصاف الأحرار lite ، والمزارعين colons وعبيد الأرض والمتحررين والعبيد والأرقاء ؛ ومجموعة الرجال الأحرار (وتشمل ملاك الأراضى المستقلين والأحرار المتحالفين مع الملك والأحرار التابعين لأحرار آخرين) .

وتتضح الحقيقة الاجتماعية لهذه الطبقات من الأهمية التى يعطيها القانون لعدم التكافؤ فى الزواج . فجميع التشريعات عند الشعوب المتبربرة فى مطلع القرون الوسطى كما يقول « فوستيل دى كولانج » تستنكر الزواج بين أفراد من طبقات مختلفة . وهى على وجه العموم تفرض على الأولاد الذين يولدون من زواج مختلط أن ينزلوا إلى الطبقة الأقل التى ينتمى إليها أحد الوالدين فمثلا إذا تزوج متحرر (tabularius) من امرأة من الرقيق فإن أولاده يعتبرون أرقاء . وإذا تزوج من امرأة من طبقة الأحرار (ingenua) فإن أولاده يعتبرون فى نفس حالته . وإذا كان الوالد حراً والأم متحررة فإن أولادهما يرثون حالة الأم . وأكثر من هذا فإن المتحرر الذى يتزوج بإحدى نساء الرقيق قد ينزل هو نفسه إلى مرتبة العبيد .

تبعية شعب إلى شعب :

وقد حدث فى ظروف تاريخية أخرى أن تكونت الطبقات على أساس علاقة التبعية بين شعب وآخر. وكان هذا نتيجة طبيعية للغزو. فالفاتحون المنتصرون يكونون الطبقة الممتازة على حين يؤلف المغلوبون الطبقة الدنيا. ويذكر لنا سبنسر Spencer كثيراً من الأمثلة على أثر الغزو فى تعيين المراتب الاجتماعية. فنى جزائر « سندوتش » وجد بين حكام الجزر المختلفة كثيرون ممن كان أجدادهم ملوكا فى الوقت الذى نزل فيه الرحالة «كوك Cook» فى هذه الجزائر ولكنهم انخفضوا إلى المرتبة الثانية فى الوقت الذى فتح فيه القائد «تاميهاميلا Taméhaméla» هذه الجزر. وفى بيرو القديمة عند ما جمعت قبائل الأنكا Incas عدة ممالك صغيرة تحت سيطرتها احتفظت بالحكام المحليين بعد أن جعلت منهم زعماء تابعين. وفى انجلترا كان من أثر الفتح النورماندى خلق طبقة من « البارونات Barons» تتمتع بممتلكات منحها لها الملك مباشرة واحتلت بذلك أسمى مكانة فى المجتمع على حين أن العشائر القديمة الأنجلو سكسونية وجدت نفسها قد نزلت إلى مرتبة دون مرتبة أصحاب الإقطاعيات.

وقد حدث فى كثير من الأحيان أن أجبر الشعب المهزوم — كله أو جزء منه على النزول إلى مرتبة الأرقاء أو عبيد الأرض

إذ يستولى الشعب المنتصر على الأراضى بأكملها ويجبر أفراد الشعب المهزوم على زراعتها لحسابه الخاص بوصفهم عبيداً أو أقناناً . وقد حدث ذلك بوجه خاص فى أسبارطه . إذ لما كان الاسبارطيون قد فرضوا أنفسهم على البلاد التى فتحوها بقوة السلاح وأقاموا معسكراتهم فوق أراض معادية يسكنها عـدد من السكان يفوق عددهم ، فقد وجدوا منذ اللحظة الأولى أنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بسلطانهم إلا إذا أخضعوا أنفسهم لنظام عسكرى صارم يتدربون عليه منذ نعومة أظفارهم . وبذلك قام لديهم نظام سيادة الدولة سيادة مطلقة على الأفراد . فلم تكن الدولة تسمح — كما يقول درويزن « Droysen » — لمن يريد أن يكون فى عداد مواطنيها بأن يكون له أى نوع من الوجود الخاص وكانت هى التى تحـدد نظام تربية الأطفال بل ونظام تأديب البالغين وفقاً للصالح العام . ولما كان المواطنون بأسرهم جنودا فقد حرم عليهم كل عمل تجارى أو صناعى بل حرم عليهم أيضا الاشتغال بالزراعة مع أنهم كانوا ملاك الأرض . ولذلك فإن الأرقاء les hilotes هم الذين كانوا يزرعون الأرض ويكفلون بذلك غذاء المحاربين من غلتها . وفيما عدا هؤلاء كان هناك عدد من السكان يسكنون المدن فى المناطق الجبلية ويتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتى المحلى وهؤلاء هم سكان البلاد المفتوحة les Périéques وكانوا يحتلون الأراضى الخارجة عن نطاق الأراضى التى تحتكرها الدولة أى

التى يخصص محصولها — كما قلنا لغذاء المواطنين المحاربين ويقوم على زراعتها الأرقاء. وكان هؤلاء السكان يدفعون الضرائب ويؤدون الخدمة العسكرية ولكن لم تكن لهم حقوق سياسية بل لم يكونوا متمتعين بالحقوق المدنية كلها. فلم يكن فى مقدورهم مثلا الزواج من المواطنات الاسبرطيات أو أن يكونوا ملاكا فى الأرض الوطنية. وهكذا نرى ثلاث طبقات تشترك فى العيش على أرض واحدة وتحت حكومة واحدة وأكبر الظن أنها كانت تمثل ثلاث شعوب متباينة. طبقة الاسبرطيين وهى الطبقة المسيطرة، وطبقة أنصاف الأحرار وهؤلاء كانوا أحراراً من الناحية الاقتصادية ولكنهم كانوا خاضعين فى كثير من أمورهم لأفراد الطبقة الأولى، وأخيراً طبقة الأرقاء وهم عبيد الأرض.

وفى مناطق أخرى من بلاد الأغريق ظلت الأرض مدة طويلة يزرعها أقنان أرقاء كانوا فى الأصل سكان بلاد غلبت على أمرها بسبب الغزو. وحين صدر دستور « سولون Solon » فى أثينا ألغى استخدام عبيد الأرض ابتداء من مطلع القرن السادس قبل الميلاد ولكن هذا النظام ظل قائما فى مناطق أخرى طوال العصور التاريخية. وكان يخضع له « المينوت Mnotes » فى جزيرة كريت و « الجيمنيت gymnétes » فى منطقة أرجوس و « والبنيست pénestes » فى منطقة تساليا Thessrlie .

ولم يكن هؤلاء جميعاً يلتزمون إزاء المالك إلا بدفع مبلغ ثابت نظير استغلالهم للأرض فكان شأنهم فى ذلك شأن رقيق الأرض فى العصور الوسطى والأرقاء فى اسبارطه . على أن مايزيد من غلة الأرض على هذا المبلغ كان يجعلهم فى غالب الأحيان أغنى من أسيادهم . ولم يكن فى استطاعة هؤلاء ترك الأرض بل كانوا يباعون معها إذا بيعت وقد كفل هذا النظام لهم ولأولادهم فيما بعد امتلاك الأرض التى كانوا يجبرون على زرعها من قبل .

ومما يمكن إرجاعه كذلك إلى علاقات التبعية بين شعب وآخر التمييز الذى كان قائماً فى أثينا بين المواطنين ، أى الذين يولدون من أبوين أثينيين، وبين المهاجرين أو الأجانب الذين منحوا حق الإقامة الدائمة، وكانوا عادة ممن وفدوا على البلاد للاشتغال بالتجارة. وهؤلاء كانوا يدفعون الضرائب كالمواطنين بالإضافة إلى بعض الضرائب الخاصة بهم فكان الأجانب فى أثينا يدفعون ضريبة رأس بمعدل ١٢ دراخمة عن الرجل وستة درخمات عن المرأة . وكانت تفرض عليهم كذلك الخدمة العسكرية وكان لهم حق حضور الحفلات الرسمية الكبيرة والمساهمة فيها بأموالهم . ولكن لم تكن لهم أى حقوق مدنية فلم يكن يسمح لهم بالتصويت فى الانتخابات ولم تكن تسمع أقوالهم أو شهادتهم فى المحاكم بل ولم يكن لهم الحق فى أن يمتلكوا أرضا أوعقارا .

كذلك لم يكن يسمح لهم بالسكنى إلا فى منازل مؤجرة . وكانت القوانين تحتم على كل منهم أن يكون له مدير prostate يمثله فى جميع الشئون التجارية أو المدنية وإذا أغفل ذلك تعرض لعقوبات قاسية قد تصل إلى حد بيعه فى الأسواق كالعبيد .

وفى روما كان الأجانب المتوطنين الذين عاشوا فى البلد أجيالا متعاقبة ولمدة طويلة يكونون طبقة مستقلة هى طبقة «العامة» Plebs وتتميز فى أصلها عن الشعب الرومانى Populus Pomanus كما أن أفراد طبقة العامة ليسوا موالى Clients فالمولى يشترك فى الطقوس الدينية التى يرأسها عاهل الأسرة ويعد عضوا فى الأسرة الكبيرة . أما طبقة العامة فلم يكن لها طقوس دينية خاصة بها ولم يكن أفرادها ينتمون إلى الأسرة الرومانية بل كانو إما أجانب أو من نسل الأجانب المتوطنين من بقايا شعب غلب على أمره قديما . وقد نلتقى فى هذه الطبقة بأشخاص مطرودين من أسرهم محرومين من الانتماء إلى عقيدتها إما لاثم اقترفوه جعل دخولهم المعبد محرما أو لأنهم تركوا الأسرة باختيارهم بعد أن كانوا من مواليها . ولا يسكن العامة المدينة الدينية (روما المقدسة) فهى مقر الاشراف والموالى وحدهم وتقول الاساطير أن «روميولوس» هو الذى أسسها وفقاً للشعائر الدينيه على هضبة « پلاتان » ويحتل العامة منطقة محصورة فى سفح جبل « كابيتولان » يقال إن

روميولوس أسس فيها ملجأ يحتمى فيه من لا نار لهم[1] ولا مأوى بحيث يظلون بعيدا عن نطاق المدينة المقدسة . ويضيف فوستيل دى كولانج إلى ذلك أنه « حين قدم إلى روما بعد ذلك عدد جديد من العامة الذين كانوا يعدون أغرابا بالنسبة لديانة المدينة رتبت السلطات أمر استقرارهم على هضبة « افنتين » وهى إحدى الهضاب السبعة التى يتكون منها نطاق مدينة روما القديمة . ومعنى ذلك أنهم كانوا خارج حدود المدينة الدينية » .

هكذا كانت حال طبقة العامة فى الأصل فلم يكن لها حق امتلاك الأرض أو حق عقد الزواج وفقا لمراسم روما الدينية ولم يكن لها حقوق سياسية ويبدو كذلك أنه لم تكن هناك قوانين تحميها . ولم تستطع أن تحصل على حقوق المواطنين إلا بعد أجيال طويلة من الكفاح المرير اندمجت بعده فى الشعب الرومانى الذى كان لا يشمل فى بادىء الأمر غير الأشراف ومواليهم .

نتائج تقسيم العمل :

إلى جانب علاقات التبعية التى تتكون نتيجة لظروف تاريخية

(١) كان لكل أسرة فى العصر الرومانى مذبح فى وسط الدار توقد فيه النار بصفة مستديمة . وكان انطفاء النار معناه زوال الأسرة . وقد جاءت كلمة Foyer بمعنى منزل الأسرة فى اللغة الفرنسية من هذا الأصل القديم، أى المكان الذى توقد فيه النار وسط منزل الأسرة . (المترجم)

أو لضرورات اجتماعية بين أفراد أو أسر أو شعوب لا متجانسة بقدر قليل أو كبير ، هناك علاقات أخرى تسهم فى تكوين طبقات اجتماعية على أسس أكثر وضوحا . ونعنى بها العلاقات التى تنتج عن تقسيم العمل الاجتماعى وهى علاقات تكونت بين الأفراد والأشياء خلال الجهود التى بذلها بنو الإنسان لتوفير أسباب معيشتهم وزيادة رفاهيتهم من جهة ولتنظيم المجتمع من جهة أخرى . وتتكون الطبقات على هذا النحو من التنوع وعدم التساوى بين الحرف التى توزع حولها النشاط الإنسانى أى أنها تتفرع أساسا على الحرفة أو المهنة أو الوظيفة التى تمارس فى المجتمع .

هذا ما نلاحظه عند بعض الشعوب البدائية . ففى جزائر « ساندويتش » حسب قول « ايليس Ellis » توجد بالمجتمع أربع مراتب الأولى تشمل الملك والملكة والأسرة المالكة والوزير الأول للملك، والثانية حكام الجزر ورؤساء التقسيمات المحلية الكبيرة، وتشمل الثالثة رؤساء المناطق أو القرى الذين يدفعون إيجارا ثابتا للأرض التى يزرعونها بوساطة خدامهم أو يعهدون باستغلالها إلى وكلائهم ، أما المرتبة الرابعة فهى مرتبة الطبقات العاملة التى تتكون ممن يستأجرون قطعا صغيرة من الأرض لزراعتها أو يعملون فى الأرض نظير غذائهم وكسائهم كما تتكون أيضا من الصناع والموسيقيين والراقصين . وتنقسم هذه الطبقات

بدورها إلى تقسيمات فرعية تحتوى على الصناع أصحاب المرتب وعمال الأرض والعبيد .

كما نلتقى أيضاً بمراتب اجتماعية لدى السكان الذين يعيشون على الفطرة فى زيلنده الجديدة وهذه المراتب عددها ستة . كما أن قبائل « الاشانتى Achantis » البدائية تحتوى كذلك على ستة مراتب على حين نجد مراتب خمسة عند الأحباش .

وتعطى لنا روسيا إبان عهد القياصرة مثالا آخر للمجتمع الذى يتدرج فى مراتب تبعا للحرف فكان سكان الريف يحترفون الزراعة بطبيعة الحال وكان سكان المدن يحترفون الصناعة أو التجارة على حين يكرس القسس والرهبان جهودهم لخدمة الكنيسة أو المذبح بينما كان النبلاء يتولون الوظائف العامة . وقد أعطى بطرس الأكبر هذا التقسيم التلقائى الطبيعى للعمل صفة رسمية بأن أصدر تشريعا يحدد طبقات المجتمع بأربع طبقات كبرى وينظم شئون كل منها بلائحة خاصة . ولم يكن لأى من هذه الطبقات حقوق سياسية ولكن النبلاء ورجال الكنيسة والصفوة المختارة من سكان المدن كانوا يحصلون بطريق القانون وبإرادة القيصر على بعض الامتيازات : وأهمها الإعفاء من الخدمة العسكرية والإعفاء من أفدح الضرائب المباشرة وهى ضريبة الرأس ومن العقوبات الجسمية التى كانت توقع بالسوط أو أعواد الخيزران . أما الطبقات التى لا امتيازات لها وهى التى تتكون من جمهرة سكان

المدن ومن صغار البورجوازيين وصغار التجار والصناع ومن رقيق الأرض فهؤلاء جميعا كانوا يدفعون ضريبة الرأس وكانوا معرضين لتطبيق العقوبات البدنية عليهم وكان لكل من هذه الطبقات التى انقسم إليها المجتمع الروسى تنظيمه الخاص وتشكيلاته النقابية وجمعياته وزعمائه المنتخبين كما كان لكل منها أحيانا محاكمه وقضاته. وكانت كل طبقة تتولى الوصاية على أعضائها القصر بل كانت مسئولة فى بعض الأحيان عن أعضائها الذين بلغوا سن الرشد .

ومثال روسيا هذا يوضح لنا أن تقسيم الطبقات الذى ينشأ تلقائيا نتيجة لتقسيم العمل يمكن أن يصبح تقسيما صارما بتدخل الدولة حين تنزع نحو تحويله إلى شبه طوائف .

وهناك أمثلة أخرى من مجتمعات أخرى تبين لنا كيف تتكون طبقات جديدة بتأثير النظم العسكرية أو المدنية أو الدينية أو عن طريقها .

تأثير النظم العسكرية :

فى بدء حياة كثير من المجتمعات وعلى الأخص المجتمعات اليونانية والرومانية القديمة وفى مقدونيا والبلاد الأوربية عامة فى العصور الوسطى ، وفى الهند وجدت طبقة من الأرستقراطية العسكرية قوامها النبلاء الذين كانوا مرشحين بفضل محتدهم لتقلد المناصب العسكرية ووظائف الإدارة فى الدولة . وهم سلالة

الأسر العريقة فى أثينا Les Eupatrides والأشراف فى روما وأمراء الإقطاع فى العصور الوسطى الخ . . . وقد دعيت طبقات أخرى فيما بعد لحمل السلاح وتولى مناصب القضاء والاشتراك فى الحكومة . واقتربت بذلك من طبقة النبلاء ثم نافستها واستطاعت فى بعض الأحيان أن تستدمجها أو تحل محلها بالاستيلاء على كل أو بعض المناصب التى كانت فى الأصل قاصرة على النبلاء .

ولم تكن الدولة فى العصور اليونانية الرومانية القديمة هى التى تتولى تسليح العسكريين وتزويدهم بالعتاد الحربى كما هى الحال فى أيامنا هذه . بل كان هؤلاء يتسلحون ويعدون أنفسهم على حسابهم الخاص . فلم يستطع حينئذ أن يخدم فى سلاح الفرسان إلا الأغنياء القادرين على امتلاك حصان . كذلك لم يستطع أن يخدم فى سلاح المشاة إلا من كانت لديهم الوسيلة لشراء الخوذة والدرع . وفى أثينا كان الشبان الأغنياء يخدمون فى سلاح الفرسان ، وكان أفراد الطبقات الوسطى يكونون وحدات المشاة المسلحة تسليحا ثقيلا ، أما أفراد الطبقات الدنيا فكانت تتألف منهم فرق الرماة والمهاجمين أما المعدمون الذين لا يملكون إلا قوة أذرعهم فكانت مهمتهم تحريك المجاديف فى قطع الأسطول .

ولم تختلف الحال عن ذلك فى روما ، فحين سمح الإمبراطور سرفيوس توليوس Tulluis للعامة بحق المواطنة ، وأدمجهم فى الشعب الرومانى، تكونت سبع طبقات واعتبرت الأولى والأخيرة

منها خارج التنظيم الطبق hors classe . أما الأولى وهى التى كانت على رأس الطبقات جميعا ، فقد كانت تضم أكثر الأشراف والعامة ثراء وكان يطلق عليهم اسم الفرسان les chevaliers وتأتى بعد هؤلاء خمس طبقات تضم الأولى منها المواطنين الذين يمتلكون عقاراً لا يقل عن ١٠٠ ألف ذراع مربع . ثم تتتابع الطبقات الأخرى مرتبة حسب الثروة كذلك فكانت الطبقة الثانية تشمل من يمتلكون ٧٥ ألف ذراع فما فوق والطبقة الثالثة من يمتلكون ٥٠ ألف فما فوق والطبقة الرابعة ٢٥ ألف والطبقة الخامسة١٢ ألف وخمسمائة . وتنتهى الطبقات من أسفل بفئة أخرى خارجة عن التنظيم الطبق هى فئةالمعوزين . وقد أنشىء هذا التقسيم الطبق لغاية حربية فوزعت الوظائف والتبعات العسكرية على قدر ثروة كل طبقة وذلك على أساس المبدأ السائد فى ذلك الوقت والذى كان يرى أن المواطنين يزداد اهتمامهم بالدفاع عن المدينة بقدر ما لديهم من ثروة . فكانت أكثر الفئات ثراء ، وهى التى ذكرنا أنها خارج التنظيم الطبق ، تتوزع على ثمانى عشرة وحدة مئوية (أى أن كل وحدة كانت تتألف من مائة فارس centuries) ومنها يتكون سلاح الفرسان . وكانت الطبقات الأولى تعمل فى المشاة وفى الصفوف الأولى ، وتليها الطبقات الثانية وهكذا . أما الفقراء وأفراد الطبقة الكادحة فكانوا يعفون من كل خدمة عسكرية . ولكن حصار « فييس veies » فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد أرغم القواد على تعديل نظام الجيش . فضم المواطنون من

الطبقة الأولى إلى وحدات الفرسان الثماني عشرة ،وأجبروا على الخدمة فى سلاح الفرسان رغبة فى زيادة وحدات هذا السلاح . وقد تكون من هؤلاء فيما بعد ما أطلق عليه « رتبة الفرسان ordre équestre »[1] .

وفى القرن الثالث (عام ٢١٩ ق . م) حظر قانون « كلوديا claudia » على رجال السناتو وعلى أبنائهم الاشتغال بالتجارة أو أى مهنة تدر ربحاً فنتج عن ذلك أن وجد رجال الأعمال أنفسهم مبعدين عن الوظائف العامة التى كانوا يصلون عن طريقها إلى عضوية السناتو (مجلس الشيوخ) واقتصر نشاطهم على الأعمال المالية وجمع الضرائب الخ . . . وحين أثرى هؤلاء الفرسان من التجارة وجباية الضرائب وأعمال التمويل ، أصبح لهم نفوذ كبير وازداد هذا النفوذ حين أراد أعضاء السناتو التحايل على القانون لزيادة ثروتهم فاستعانوا بهم كوسطاء . وفى القرن الثانى (عام ١٢٩ ق . م) حين صدر قانون التعارض بين لقب عضو السناتو ولقب الفارس نشأ فاصل محدد بين هاتين الطبقتين المتنافستين .

---

(١) كان هناك فرق فى التسمية بين الفئة الأولى من الفرسان equites equo publico والفئة التى انضمت بعد ذلك equites equo privato

(المترجم)

تأثير النظم المدنية :

لم تكن النظم العسكرية وحدها هى التى تعمل على تكوين طبقة أو طبقات جديدة بل أن النظم المدنية لها كذلك أثرها فى هذا المجال . ومن أمثلة هذا الأثر تكوين طبقة القانونيين فى العصور الوسطى . فقد اصطلح فى العهد الرومانى على أن يقوم الموثقون بكتابة العقود les notaires وأدى ذلك إلى إنشاء مدارس لتعليم صياغة العقود والمرافعة أمام القضاء . وكانت هذه المدارس يديرها أفراد من غير رجال الدين laiques يطلق عليهم اسم « الماجستراه أو الدكاترة »[1] وفى منتصف القرن الثانى عشر تقريباً أسس أشهر الأساتذة فى دراسة القانون الرومانى مدرسة للقوانين المدنية فى بولونيا Bologne فى إيطاليا . وعلى هذا النحو تكونت شيئاً فشيئاً طبقة القانونيين والقضاء والمحامين والموثقين الذين استعان بهم ملوك أوربا فى الوظائف الإدارية والقضائية . وكانت العقود والوثائق يكتبها قبل ذلك رجال من الكنيسة . ولكن عندما تصدرت مدن إيطاليا غيرها فى استخدام القانونيين المتمكنين من القانون الرومانى كمشرعين وموظفين حذت البلاد الأخرى حذوها وتكونت بذلك طبقة من رجال

---

(١) لما كانت هذه الفئة تمثل أكثر الناس ثقافة فقد اقتبست ألقاب الماجستير والدكتوراه فيما بعد لتدل على الدرجات الجامعية . (المترجم)

القانون انضمت إلى البورجوازية فزادت من حجمها ورفعت كثيرا من شأنها .

وفى فرنسا خلال العصور الوسطى خاصة فى عهد النظام الملكى القديم ، أدى التنوع فى قيمة إيجارات الأراضى والاختلاف فى قيمة ضرائب الإقطاع والتعقد فيما يتصل بتسوية حالة الناس وتحديد أراضيهم وازدياد عدد الإقطاعيات ، أدى كل ذلك إلى توالى صدور التشريعات والأحكام وتنوعت تبعا لذلك درجات رجال القانون ووظائفهم : فمن نظار إقطاعيات prévots إلى موثقين tabellions إلى قضـــاة Baillis إلى مأمورى ضرائب الخ . . وأصبح عدد كبير من رجال القانون فى القرن الثامن عشر يحتلون مراكز ممتازة فى كثير من المدن ويعيشون فى سعة من أرباح مهنتهم . وفى الوقت الذى تقرر فيه اجتماع مجلس ممثلى الأمة كان رجال القانون على رأس الحركة التى انتهت بقيام الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ .

ونلاحظ اليوم فى كثير من دول أوربا ظاهرة من نفس النوع ؛ إذ أدى تدخل الدولة فى كثير من الميادين التى كانت فى المـاضى بعيدة عن مجال نشاطها ، وادى تكوين المجالس النيابية إلى وجود طبقة من الناس تقدح ذهنها لـكى تسن دائما قوانين جديدة وأصبح التشريع من التعقيد وتنفيذ القوانين من الصعوبة بحيث جعل من الضرورة وجود هيئات ادارية يتخصص كل منها فى فرع من

الفروع القانونية العديدة . ومن ثم أصبحت كل إضافة فى التشريع الاجتماعى يتبعها بطريقة آلية زيادة عدد الموظفين الفنيين والإداريين فتكونت بذلك طبقة جديدة هى : البيروقراطية[١] .

تأثير النظم الدينية :

ويصدق ما قلناه بشأن تأثير النظم المدنية على تأثير النظم الدينية ، ويصح أن ندلل على ذلك بتتبع تطور الكنيسة المسيحية فقد كان المسيحيون الأوائل — كما يقول جيزو فى كتابه « تاريخ الحضارة فى أوربا »[٢] يجتمعون ليذوقوا لذة اتحادهم فى العواطف والعقائد الدينية دون أن يكون لديهم مجموعة من المذاهب المقررة والقواعد المنظمة أو هيئة من رجال الكهنوت . ولكن مالبث أن ظهر بينهم نوع من التنظيم ، فأصبح لديهم القسس أو القدماء anciens والرعاة surveillants وخدام الكنيسة الذين كانوا يتولون جمع الصدقات وتوزيعها والعناية بالفقراء . ومع ذلك ظلت السلطة العليا فى يد كتلة المؤمنين الذين كانوا يجتمعون فى جمعية عامة ecclesia لانتخاب القسس والأساقفة . وما أن أتى القرن الثالث حتى كون الأساقفة والقسس هيئة طائفية أخذت تحتكر كل ما يتصل بالعقيدة والوعظ والتعليم . على هذا النحو

---

(١) أى طبقة من يشتغلون خلف المكاتب . (المترجم)

(٢) Guizot : Histoire de la Civilisation en Europe .

تكونت طبقة من رجال الدين clercs تميزت عن بقية العامة من لا شأن لهم بالدين laiques . وأصبحت كلمة le clergé الفرنسية تدل على طبقة رجال الكنيسة بجميع مراتبهم . ثم انفصلت هذه الطبقة شيئا فشيئاً فيما بعد عن الشعب : إذ عندما أصبحت الامبراطورية الرومانية مسيحية وتولت حماية الكنيسة ورعايتها جعلت من أفراد الشعب المؤمنين رعايا ومن رجال الكنيسة حكاما مسيطرين . واستطاع رجال الدين على هذا النحو أن يتحرروا من رقابة المجامع الدينية وأن يتولوا وحدهم ادارة جميع أملاك الكنيسة وأن يستولوا وحدهم كذلك على ريعها . وما أن وافى القرن الخامس حتى كانت الدول المسيحية فى الغرب تفصل فصلا تاما بين المجتمع المدنى والمجتمع الكنسى . وبذلك خلقت طبقة جديدة .

تأثير الثروة والثقافة :

تقوم الثروة أو الثقافة أو هما معا فى بعض الأحيان بدور فى تكوين الطبقات تحت تأثير النظم العسكرية أو المدنية أو الدينية .

ولننظر أولا فى أثر الثروة . فقد كان أغلب امراء الاقطاع ممن كانوا يكونون الأرستقراطية العسكرية فى العصور الوسطى من كبار ملاك الأراضى أو ممن يتولون المناصب الكبيرة . فكان لهم الحق من أجل ذلك فى التمتع بريع المزارع الكبيرة ؛ لذلك كانوا

يمتلكون ثروات ضخمة تمكنهم من تحصين قصورهم والانفاق على حامية من الجنود . وقد رأينا كذلك فى اليونان وفى روما أن التزام الفارس بتسليح نفسه وإعدادها على نفقته الخاصة كان من نتيجته وضع كل طبقة حسب ثروتها فى سلاح خاص : الفرسان أو فرقة المشاة الثقيلة أو فرقة المشاة الخفيفة الخ . . كما رأينا كيف انتهت طبقة الفرسان فى روما عندما أثرت بمزاولة الأعمال التجارية — بتكوين مرتبة جديدة فى الدولة .

لكن هناك حالات أخرى تؤثر فيها الثروة بذاتها ويكون الثراء الناتج عن ممارسة حرف مربحة سبباً يدفع إلى تكوين طبقة جديدة . فعندما أثرى فى اليونان عدد من المواطنين عن طريق التجارة البحرية استطاعوا أن ينشئوا « حظائر وإسطبلات» لتربية الخيول والبغال التى كانت تدرب خصيصاً للسباق . وعن طريق تربية الخيول والفوز بها فى سباق العربات فى الألعاب الأولمبية ، كونوا لأنفسهم طبقة خاصة من النبلاء اشتهرت بكرمها ونشاطها وحب الشعب لها نظرا لما كانت تحققه له من أرباح بترفها وما تهيء له من متعة فى مناسبات النصر بعرض الألعاب البديعة واعداد الولائم الدسمة . » ويضيف كورتيوس Curtius إلى ذلك قوله إن هؤلاء النبلاء كانوا فى تباين تام مع طائفة « الدوريين les doriens » التى اشتهرت بتزمتها وبخلها والتى لم تكن لذلك محبوبة من الشعب.

وقد حدث كذلك فى روسيا السوفيتية عندما قرر « لينين »

فى عام ١٩٢١ العودة إلى الاقتصاد الحر بعد أن حدثت مجاعة بسبب نظام تجميع الأراضى فى يد الدولة والاستيلاء على المحاصيل بالقوة أن أصبح عدد كبير من الفلاحين فى حالة ثراء مما أدى إلى تكوين طبقة جديدة من المزارعين الموسرين هى طبقة «الكولاك les koulaks » التى قضى عليها فيما بعد ، وتبعثر أفرادها فى السجون والمعتقلات لاتهامها بالعداء للنظام الشيوعى وذلك فى الوقت الذى عدلت فيه الحكومة عن تطبيق النظام الحر فى الاقتصاد .

وهناك مثال آخر وهو تكوين طبقة من نبلاء رجال القانون كنتيجة لتجمع الثروة فى يد البورجوازية . ذلك أن النهضة الاقتصادية فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، أتاحت لعدد كبير من التجار تحقيق أرباح وفيرة لا تقع تحت طائلة النظام الضريبى مما اضطر الملكية إلى البحث عن وسيلة لتقاضى جُعْل عن هذه الثروات الجديدة . فابتدعت نظام بيع الوظائف الجديدة وعلى الأخص المراكز الخاصة بتولى القضاء وأصبح رجال القانون بذلك « سلطة رابعة » على حد قول فيلسوف القرن السادس عشر مونتنى Montaigne . وفى جمعية ممثلى الأمة التى انعقدت فى سنة ١٥٥٨ كانت طبقة العامة le Tiers Etats تحتوى فى الواقع على قسمين : رجال القانون من ناحية وممثلو المدن من ناحية أخرى . وقد صارت هذه الفئة الارستقراطية ،

فئة رجال القانون ، بعد أن اعترف بها كنظام فى الدولة ، صارت طبقة متميزة عن البورجوازية وعن طبقة النبلاء فى آن واحد . وأصبح القاضى الذى اشترى وظيفته بالمال لايعزل منها إلا إذا رد إليه ما دفعه . وتمتع القضاة على هذا النحو باستقلال كبير جعل الملوك يجدون صعوبة فى استمالتهم . وإذا أضفنا إلى ذلك أن الوظيفة كانت تنتقل بالوراثة من الأب إلى ابنه أدركنا كيف تكونت أسر من رجال القانون تحابى كل أسرة أقرباءها فاتسعت بذلك شقة الفوارق الخلقية التى تميز هـــذه الطبقة من الطبقات الأخرى .

وفى روسيا السوفيتية أعلن القادة عن رغبتهم الأكيدة فى إنشاء مجتمع بدون طبقات . لكن حكم الواقع انتصر آخر الأمر على تدبير الأفراد . إذ تكونت طبقات جديدة وذلك حسب شهادة السير والترسيترين Walter Citrine التى أكدتها أقوال وايفوز دبلوس Deblos ، وكوستلر وكرافشنكو وغيرهم ممن عاشوا فى المجتمع السوفيتى . فلم يلبث محترفوا السياسة والمختصون فى الاقتصاد السياسى أن نمموا بما أتاحه لهم مركزهم الممتاز وأصبحت لهم عادات وطرق فى العيش تميزهم عن عامة الشعب : فسكنوا «الفيلات» وألفوا الإقامة فى مدن الاستحمام صيفا وفى المشاتى شتاء الخ . . . كما أخذت سيدات بعض رجال الكرملين فى شراء ملابسهن من باريس ، أما هؤلاء الرجال أنفسهم فإنهم يعيشون أحسن بكثير مما

يعيش أقدر العمال وأكفأهم . والواقع أن عـدم تساوى المرتبات والأجور يؤدى حتما إلى الاختلاف فى وسائل المعيشة وإلى تكوين علاقات بين من يعيشون فى مستوى واحد وبالتالى إلى تكوين الطبقات . بل لقد تنبأ سيروالترسيترين بأن نظام الأجر « بالقطعة » ومكافآت زيادة الإنتاج وهما الوسيلتان اللتان اتخذتا لتشجيع العامل ولزيادة الانتاج قد تؤديان إلى تكوين طبقة بورجوازية جديدة .

وليس تأثير الثقافة بأقل من تأثير الثروة فى تكوين الطبقات الجديدة . فى القرنين الرابع والخامس ، حين دخل الناس أفواجا فى المسيحية ، وكان منهم فريق أثاروا الشكوك من ناحية أخلاقهم وميلهم إلى الوثنية لم تلبث الشقة أن اتسعت بين رجال الكنيسة والشعب . وادعى رجال الدين أن لديهم وحدهم من الايمان والثقافة ما يكفل حسن القيام على تعليم الدين وتفسير الإنجيل وما على جموع الشعب من المسيحيين إلا أن يستمعوا ويؤمنوا .

وجاء بعد ذلك عصر ضعف فيه سلطان رجال الكنيسة بمقدار ما ازدادت ثقافة العامة . وقد ساعد على ذلك اختراع الطباعة الذى جعل الإنجيل فى متناول كل يد وأصبح من الميسور للمسيحيين أن يتبصروا فى الدين بقراءة الكتب المقدسة . أما فى البلاد البروتستنتية حيث رفض الناس سلطة الكنيسة ونظام المراتب فيها كما حدث فى جزء من ألمانيا ، فقد قلت الفروق بين « الرعاة » وبين أفراد

الشعب . وقد حدث نفس الأمر فى اسكتلنده ومن باب أولى فى فرقة « المستقلين » حيث كان أول عابر سبيل يعتقد أو يقول عن نفسه أنه ملهم — يستطيع أن يقف على المنبر ويعظ الناس بأقوال الله .

ولاشك أن تكوين طبقة رجال القانون فى العصور الوسطى بفضل دراسة القانون الرومانى يزودنا بمثال آخر على تأثير الثقافة وتقدم المعرفة . وقد حدثت ظاهرة مماثلة فى روسيا إبان عهد القياصرة . فقد كانت الإصلاحات التى ادخلها الامبراطور إسكندر الثانى وخاصة إصلاح النظام القضائى تتطلب لتطبيقها رجالا مستنيرين فنشأت على هذا النحو وظائف ومهن تقتضى معارف عامة وخاصة .

وحين فتحت الجامعات وتقدم التعليم وأنشئت السكك الحديدية التى قربت المسافات الشاسعة وساعدت على التوسع فى التجارة والصناعة دعت الحاجة إلى الاساتذة والمهندسين والقضاة الخ . . وقد مهدت هذه العوامل لظهور طبقة جديدة من البورجوازية هى أصحاب المهن الحرة إلى جانب البورجوازية القديمة التى قامت على التجارة وحدها .

الفصل الثالث

تطور الطبقات

نعود إلى ما ذكرناه فى المقدمة فنقول إن الطبقات الاجتماعية حقائق مائعة وذلك لأكثر من سبب . فنحن لانستطيع دائما أن نحدد بدقة أين تبدأ إحداهما أو أين تنتهى . ثم أنها بعد ذلك غالبا ما تتغير بفعل الحوادث التاريخية أو التقدم العام للحضارة . فقد يحدث بين يوم وليلة أن تجد الطبقة نفسها وقد ازدادت قوتها وثروتها ونفوذها وقد يحدث العكس فتجد نفسها وقد هبطت إلى درجة أدنى . ويمكن أن نطلق على هذه الظاهرة اسم « ارتفاع الطبقات وتدهورها » .

ويتخذ التطور على كل حال شكلين متميزين : فقد يحدث أن ترتفع الطبقة فى مجموعها إلى مستوى طبقة أخرى كما حدث فى روما حين أصبحت مرتبة الفرسان ندا لمرتبة رجال « السناتو » . بل أن الطبقة فى ارتفاعها قد تنتزع السيطرة من طبقة أخرى كما حدث للبورجوازية فى أعقاب الثورة الفرنسية حين حلت محل طبقة النبلاء القديمة . وقد يحدث كذلك أن تظل الطبقة فى مجموعها على وضعها الأصلى تقريبا لكن عددا من أفرادها أو فئة متزايدة منهم ترقى إلى طبقة أعلى وتندمج فيها إما عن طريق الزواج أو عن

طريق اكتساب حقوق هذه الطبقة العليا . ويجدر بنا أن نفرق بين هذين الشكلين من أشكال التطور الطبق . فى الحالة الأولى يحدث فى الواقع ارتقاء حقيق من طبقة إلى طبقة ؛ أما فى الحالة الثانية فان ما يحدث يمكن أن نسميه تداخلا أو اندماجا .

وهناك علاقة بين هاتين الظاهرتين بالرغم من أنهما منفصلتان فكلما ازدادت الطبقة قوة ونفوذا تاقت نفسها إلى اكتساب المزايا والامتيازات التى تتمتع بها الطبقات العليا .

فى فرنسا عام ١٧٨٩ حاولت طبقة العامة أن تساوى طبقة النبلاء ولم تجد من وسيلة للوصول إلى مستواها خيراً من إلغائها نهائيا . وفى انجلترا استطاع كبار التجار الذين أثروا عن طريق ممارستهم للعمليات المالية أن يدخلوا مجلس اللوردات الذى ظل مدة طويلة قاصرا على النبلاء أصحاب الألقاب الوراثية . وفى فرنسا يلاحظ اليوم أن العمال يحاولون الاصطباغ بالصبغة البورجوازية فيطالبون بالاشتراك فى إدارة المشروعات ومراقبة الحسابات ويضغطون فى سبيل ذلك على الحكومة عن طريق اتحاد نقابات العمال وعلى هذا النحو تنزع الطبقات إلى أن يتكامل بعضها مع بعض وإلى أن يندمج بعضها فى بعض .

ومن ناحية أخرى فالطبقة التى تنحدر تتلاشى تدريجيا فى الطبقات الدنيا وتقتبس إلى حد ما أسلوب حياتها وعاداتها

وطرق سلوكها . وعلى ذلك فإلى جانب التسوية فى مستوى عال تسوية فى مستوى منخفض : من ذلك ما حدث للطبقات الوسطى فى ألمانيا بعد الحرب العظمى الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ وفى فرنسا بعد تحريرها من الاحتلال الألمانى فى الحرب الأخيرة فإن هذه الطبقات قد اتسمت بسمة الطبقات الكادحة بسبب التدهور المطرد فى حالتها المادية .

ويذخر التاريخ بالأمثلة عن الطبقات التى ارتفعت عن طريق اندماجها فى الطبقات العليا والطبقات التى انخفضت عن طريق اندماجها فى طبقة دنيا . وسنقدم الآن بعض الأمثلة التى تعد نماذج لكل من هاتين الظاهرتين .

تداخل الطبقات أو اندماجها :

فى القرون الأخيرة من تاريخ الدولة الرومانية دعت حاجة المجتمع لإصلاح الأراضى وإعدادها للزراعة حتى يتجنب المجاعة ويضمن للناس ما يقيم اودهم — دعت هذه الحاجة إلى أن تفرض الدولة من القوانين ما يلزم الفلاحين بالبقاء فى الأرض ويبعدهم عن التفكير فى هجرة القرى . وفى الوقت نفسه اضطر عدد كبير من صغار الملاك — رغبة فى التهرب من عسف الضرائب أو خوفا من أن ينتزع جار قوى أرضهم من أيديهم — اضطروا إلى بيع أراضيهم لكبار الملاك بشرط أن يضمنوا لهم الاستمرار فى زراعتها

هم وذريتهم من بعدهم . وكانت المصلحة مشتركة بين كل من المالك والمزارع — فقد كان الأول يريد أن يكون لديه دائما من يباشر زراعة أرضه وكان الثانى يتوق إلى الاحتفاظ بمركزه فى مزرعته طوال حياته ، وإلى ضمان انتقالها من بعده إلى أولاده — هذه المصلحة المشتركة جعلت المالك والمزارع يوقعان فى كثير من الأحيان اتفاقا يتعهد المزارع بمقتضاه بالنسبة لشخصه ولأولاده بألا يتركوا الأرض أو يهجروها لأى سبب من الأسباب كما يتعهد المالك بألا يطردهم منها أبداً ما داموا يؤدون له ما اتفق على أدائه سنويا نظير استغلال الأرض وهو مبلغ غير قابل للزيادة أو النقصان . وبمضى الوقت انضمت إلى فئة صغار الملاك هذه فئة أخرى أصلها من البرابرة الذين وقعوا أسرى فى الحروب ، فألحقوا بأراضى يستصلحونها ويزرعونها بالشروط نفسها . فأصبحت زراعة الأرض بواسطة الملتصقين بها تشمل فئات تختلف فيما بينها أشد الاختلاف من حيث حالتها الاجتماعية . فكان فيها العبيد المقيدون فى سجلات الإحصاء كجزء لا يتجزأ من الإقطاعية فيها ، وكان فيها المعتوقون الذين كانوا يزرعون الأرض لحساب أحد الأسياد ، والمزارعون الذين يستقرون — كما قلنا — فى الأرض ويتمتعون بامتياز استغلالها أبا عن جد ، وصغار الملاك القدامى الذين تخلوا عن أرضهم لمالك كبير بشرط أن يحتفظوا بحق استغلالها ، والبرابرة من قدماء الأسرى الذين أجبروا على

زراعة الأرض . هذه الفئات جميعا اندمجت فى طبقة واحدة هى طبقة الزراع التى ضمنت لنفسها الانتفاع بالأرض وانتقالها من الأب إلى الابن نظير ما تقدمه إلى المالك من جعل ثابت لا يزيد أو ينقص وكانت هى فى مقابل ذلك تستقر فى الأرض ويسلمها كل جيل إلى الجيل اللاحق .

هذا المثال يوضح لنا كيف أن أفرادا من طبقات مختلفة ينخرطون بحكم الظروف فى مستوى واحد هو على وجه التقريب مستوى أقلها مرتبة . أما تطور طبقة الموالى فى أثينا وفى روما فإنه يصور لنا على عكس ذلك حالة طبقة تتحرر تدريجياً وترتفع إلى مستوى أعلى .

ففى أثينا كانت الأسر الكبيرة من ملاك الأراضى الذين كان يطلق عليهم اسم ذوى الأصل العريق Eupatrides تجمع حولها نفرا كبيرا من الموالى يتولون شئون الأراضى . وقد استطاع هؤلاء أن يحصلوا على قطع من الأراضى يتصرفون فيها كما يشاءون بشرط واحد هو أن يدفعوا جعلا ثابتا يوازى سدس قيمة المحصول وفى حالة اخلال المولى بهذا الشرط كان من حق السيد أن يرد خادمه القديم إلى حالة الرق . ولكن القانون الذى شرعه « صولون Solon » أقر بأن عدم الدفع لا يجيز إرجاع المولى إلى الرق بل سمح له أن يصبح بدوره مالكا حر التصرف فى أرضه .

وفى روما تطورت حال الموالى بطريقة مماثلة . فنى الأصل كان السيد يعين للمولى قطعة أرض يزرعها فلم يكن هذا الأخير سوى خادم أو على الأصح عامل زراعى حكم عليه منذ ولادته بأن يربط مصيره بسيد ليس له الحق فى أن يتركه . ولكن بمضى الوقت أصبح هذا المولى مالكا لحق استغلال حصته من الأرض نظير أسهامه فى بعض نفقات السيد (كأن يدفع له الفدية إذا أسر فى الحرب أو يدفع البائنة لبناته أو الغرامات التى يحكم بها عليه) ثم استطاع بعد ذلك أن يورث هذا الحق لأبنائه وأخيراً سمح له بأن يوصى بالأرض بعد موته لمن يشاء. فأصبحت الأرض فى حالة وفاة المولى بدون وريث لا تعود آليا إلى السيد أو على الأقل لا تعود كلها إلى السيد كما كانت الحال من قبل .

ولم يأت القرن الرابع قبل ميلاد المسيح حتى كانت طبقة الموالى قد تلاشت وأصبح هذا الاسم لا ينطلق إلا على فئة وهمية من الموالى الذين كانوا يختارون بأنفسهم هذا الوضع لما يكفله لهم من حماية أو مساعدة رجل ذى مكانة ونفوذ .

ويصور لنا تطور طبقة العامة فى روما كذلك مقدار اقترابها المطرد من طبقة الأشراف فقد كانت هذه الطبقة فى الأصل محرومة من حقوق المواطنة وهذه الحقوق كانت تشمل حق عقد الزواج الدينى وحق امتلاك الأرض . ولكنها استطاعت شيئا فشيئا أن تصل إلى حق الملكية ، ثم تزوج بنات العامة الأغنياء من أبناء

الأشراف . وبعد أن كان العامة لا يحق لهم التقاضى إلا أمام ساحات خاصة بهم يتولى القضاء فيها « قضاة الشعب » استطاعوا بعد أن قويت شوكتهم أن يقفوا أمام ساحة ذوى الكراسى العاجية[1]. ثم جاء بعد ذلك عهد تحتم فيه أن يكون أحد القنصلين من العامة [2].

وقد ظهرت بوادر التداخل والاندماج بين الطبقات فى فرنسا فى القرن الثامن عشر بل وقبل ذلك فى أواخر القرن السابع عشر. وكان العامل الأكبر فى ذلك أن أسر النبلاء قد حرم عليها الاثراء عن طريق التجارة وإلا فقدت مراكزها . فلما وجدت أنها تنحدر إلى الفقر وهى فى خدمة الملك والوطن اضطرت إلى تزويج أبنائها من بنات رجال المال الأغنياء حتى تظل شعلتها مموهة بالذهب. وقد لمحت مدام دى جرينيان (وهى سيدة نبيلة حصلت على لقبها عن عن طريق زواج من هذا النوع) إلى هذه الحال حين قدمت ابنة زوجها إلى معارفها بقولها « لابد من الزبل حتى لأجود تربة » .

---

(١) magistratures curules ، من التقاليد الرومانية القديمة أن يجلس كبار المستشارين من طبقة الأشراف على كراسى عاجية وكان لا يصل إلى هذا المنصب الرفيع إلا عدد قليل وأصبح لقب « الكراسى العاجية » يطلق على أصحاب هذا الامتياز . (المترجم)

(٢) فى حقبة معينة من تاريخ روما كان على رأس الدولة حاكمان أطلق عليهما اسم « القنصلين » . (المترجم)

وقد يحدث اندماج الطبقات على أثر تسوية العادات بينهما مما يؤدى إلى تخفيف أو إلغاء الحواجز التى كانت تفصل بينهما فصلا حاسما . من ذلك ما حدث فى فرنسا فى القرن الثامن عشر حين انتشرت عادة الاختلاف إلى الصالونات الأدبية وتذوق الآداب بين أفراد المجتمع الراقى فقربت بين طبقتى النبلاء والبورجوازية اللتين كانتا تستويان من حيث الثقافة والاستنارة وتفترقان من حيث الامتيازات . وإن قوانين إلغاء «ألقاب النبالة» فى عهد الثورة لم تزد فى الواقع على إقرار حالة من التغير كانت قد أصبحت أمراً واقعاً فى عرف المجتمع وعاداته . ونحن فى أيامنا هذه نلاحظ اتجاها مماثلا نحو التسوية بين الطبقات وهذا الاتجاه مبعثه تقليل الفوارق من حيث الثروة وميل أساليب الحياة إلى الروح الديموقراطية مما ساعد على إيجاد نوع من التجانس فى العادات والتقاليد بين الطبقات المختلفة .

وتتضح هذه الحال بوجه خاص فى أمريكا . فقد روى لى زميل زوج ابنته لاحد الأمريكيين أن ابنته هذه كانت تستعين بزوجة أحد العمال للقيام بأعباء المنزل. وكان هذا العامل يمتلك سيارة يذهب بها إلى مصنعه . كما كان لزوجته سيارة تحملها فى ذهابها للخدمة فى بيوت الناس . ويمكننا أن نضع هذه الحالة إلى جانب حالة أخرى أكثر غرابة . فقد روى أحد كبار المشتغلين بالنقل الذين يترددون كثيرا على الولايات المتحدة بحكم عملهم أن مدير أحد المصانع كان

يمتلك سيارة فاخرة ولكنها كانت من حظ زوجته وابنته وحدهما ، أما هو فقد كان يركب « المترو » كل يوم للذهاب إلى عمله . يبدو لى أن هذين المثالين الصغيرين يوضحان بمافيه الكفاية كيف أن التحديد والفواصل بين الطبقات فى الولايات المتحدة أضعف منها فى أى بلد آخر . ولذلك فإن العامل الذى يجد نفسه لأى سبب من الأسباب قد أصبح مليونيرا لا يشعر بأنه غريب فى وسطه الجديد ، وهذا على عكس ما يحدث فى انجلترا أو فى فرنسا . ذلك أن كثيرا من الاغنياء لا يمتازون عنه علما فى الواقع فهو يرى أنه فى مستواهم من حيث التعليم وأساليب السلوك فإذا اختلط بهم لا يشعر بأنه قد دخل فى عالم غريب يختلف كثيراً عن العالم الذى عاش فيه . ومما يؤكد عدم وجود هذا الشعور أن الناس فى أمريكا ينظرون إلى المراكز بوجه عام على أنها « مؤقتة » فالغنى اليوم قد يفلس غدا ، والفقير اليوم قد يصبح غنيا . والخدم والمستخدمون ينظرون إلى من يستخدمونهم نظرة فيها شعور بأنهم قد يساوونهم فى يوم من الأيام . وعلى ذلك فإن النعرة الطائفية التى تظهر بوضوح فى بلد ظل يحتفظ بالروح الارستقراطية كانجلترا ، لاوجود لها بتاتاً فى أمريكا . ومن هذه الناحية قيل عن الولايات المتحدة أنها تلبس ثوب مجتمع بدون طبقات بالرغم من بعـــد الشقة بين صاحب آلاف الملايين ، ملك القطن أو ملك البترول ، وبين العـامل البسيط .

رغبة الطبقة الدنيا فى الارتقاء :

يتوق كل إنسان إلى تحقيق السعادة لنفسه وهو يحاول تبعا لذلك إحداث تغيير فى حالته إذا كان غير راض عن الحالة التى يعيش فيها . فمن الأمور الطبيعية إذن أن ترغب الطبقات المحرومة فى التمتع بنفس المزايا التى تتمتع بها الطبقات الممتازة التى تثير إعجابها أو حسدها . ولذلك نراها قد حاولت فى جميع العصور أن ترقى بنفسها فى مدارج الحياة الاجتماعية مستعينة على ذلك بالوسائل التى تكون فى متناول يدها وقد تتخذ هذه المحاولات صفة الجهود الفردية للوصول إلى الحرية أو الثروة أو ألقاب الشرف أو النفوذ أو تتخذ صفة الجهود الجمعية وحينئذ تتحول إلى كفاح مكشوف .

ففى القرنين السابع عشر والثامن عشر مثلا كانت طبقة النبلاء هى المثل الأعلى فى أعين البورجوازية . وليست مسرحية البورجوازى النبيل «Le Bourgeois gentilhomme» التى كتبها «موليير» هى الصورة الوحيدة التى تشهد بذلك . وكان رجال المال يشترون ألقاب النبل ويدفعون من أجلها مبالغ كبيرة . وحين قامت الثورة الفرنسية وفتحت مجال الترقى إلى الرتب العليا فى الجيش أمام أفراد الطبقات الشعبية بعد أن حرمهم قانون سنة ١٧٨٨ ، الرجعى من ذلك الحق أصبح

الانخراط فى سلك الجندية يحقق بالنسبة للكثيرين ما تحققه ألقاب النبالة . ولم تكن النبالة العسكرية التى خلقها نابليون حين منح قواده ومرشالاته لقب « الأمير » أو « الدوق » أو « الكونت » ، لم تكن هذه النباله العسكرية فى الواقع إلا إقراراً رسمياً لنزعة موجودة فى نفوس الناس وأملا يراود خواطرهم قد صيغ فى شكل قانون .

وفى أيامنا هذه « ينظر العامل المتوسط — كما لاحظ على الخصوص « هنرى دى مان Henri de Man » إلى معيشة الطبقات المالكة على أنها نوع أرقى من المعيشة » ؛ ولذلك فهو يكافح هذه الطبقات للحصول على أجر أكبر وحظ أوفر من الرفاهية أو لاكتساب حقوق سياسية ، ويتخذ هذه كلها وسائل لكى يقرب حالته من حالتهم . وهو غالباً ما يعمل جهده لكى يجعل من أولاده « بورجوازيين » ، وذلك بتوجيههم إلى المهن الحرة كالهندسة أو الطب أو المحاماة بدلا من تدريبهم على احتراف صنعته .

هذا الجهد الذى تبذله الطبقات الدنيا للتحرر من الخضوع والتبعية حين تكون مضطهدة أو للتساوى بالطبقات الأعلى حين تسنح لها الفرصة لتحقيق آمالها — هذا الجهد تزداد فرص نجاحه بدون ثورات أو أزمات كلما كفت الطبقات العليا يدها عن إثارة

العقبات فى وجهه ، وارتضت عن طيب خاطر التنازل لهذه الطبقات المحرومة عن بعض الحقوق يحدوها فى ذلك الفهم الحقيق لمصالحها . وقد كان تطور رق الأرض فى فرنسا مثالا لهذا التحول الوئيد .

فى خلال حكم ملوك الفرنجة [1] كان امتلاك العبيد قائماً كما كان هناك رقيق الأرض بمعناه الحقيقى . ولكن حالة العبيد فى « جرمانيا » حسب مايرويه لنا المؤرخ الرومانى « تاسيت Tacite » كانت كبيرة الشبه بحالة المزارعين الأحرار فى النظام الرومانى « Les colons romains » : فكان العبد يسكن كوخاً مستقلا ويزرع الأرض لحساب سيده .

ويبدو أن الجرمان كما يقول جيزو لم يفهموا جيداً — حين انتقلوا لزراعة الأرض الرومانية — لم يفهموا الفرق بين حالة المزارعين الأحرار والعبيد . ومما أعاقهم عن هذا الفهم أن الفروق فى الوضع القانونى لهاتين الطبقتين كانت طفيفة لا يمكن تقديرها بدقة إلا بالاستعانة بالتشريعات المحكمة وفى ظروف اجتماعية

---

(١) La période franque : من اسم هذا العهد اشتقت فرنسا اسمها الحالى وقد كانت قبل ذلك حتى الغزو الرومانى تسمى إقليم الغال .
(المترجم)

متقدمة . ولهذه الأسباب اختلط عليهم التميز بين حالة العبيد وحالة المزارعين الأحرار ، وأدمجوا الفئتين فى طبقة واحدة هى طبقة رقيق الأرض .

وقد أفاد العبيد من هذا الخلط وخسر المزارعون الأحرار على العكس من جرائه . فقد كان المزارع الحر يدفع عادة إلى مالك الأرض جعلا ثابتاً لا يمكن أن يزيد أو ينقص ، ولكن أضيف إلى ذلك ضريبة الرأس التى كان يدفعها للدولة حسب تقديرها كما هى الحال بالنسبة للضرائب التى ندفعها اليوم . وحين حل سيد الأرض محل الدولة تعين على رقيق الأرض أن يدفعوا له ضريبة الرأس هذه ، وتحولت فيما بعد إلى الضريبة العقارية التعسفيه la taille التى ظلت تفرض على أفراد الشعب حتى قيام الثورة الفرنسية .

ومما أساء كذلك إلى المزارع الحر حين اختلط برقيق الأرض أن العادة المتبعة كانت تحرم على رقيق الأرض أن يتزوج بدون موافقة سيده . وذلك لأنه إذا تزوج من حرة أو من فتاة تخضع لإقطاعية أخرى فإن الأولاد الذين يأتون ثمرة لهذا الزواج قد يفلتون من استغلال سيد الإقطاع ؛ فمثل هؤلاء الأولاد لا يعدون رقيقاً له بحكم القانون إما لأنهم يتبعون حالة أحد والديهم إذا كان حراً ، وإما لأنهم يصبحون رقيقاً لسيد آخر .

إن حالة الخضوع المطلق هذه هى التى حاول رقيق الأرض أن يتخلصوا منها . فبذلوا جهوداً للتخلص من أعباء السخرة والضرائب التى تفرض عليهم فرضاً تعسفياً ، ومن الإقامة الإجبارية ، وليظفروا بحقوقهم فى حرية اختيار الزوج وحرية التصرف فى الميراث . وقد سهل لهم الوصول إلى هذه الأهداف عاملان أساسيان : حاجة أمراء الإقطاع إلى المال ، وخوفهم من إقفار إقطاعياتهم من السكان . ويمكن أن نضيف إلى هذين العاملين بعض البواعث الدينية .

أما عن الحاجة إلى المال فقد دفعت الأمراء بل والملك نفسه إلى بيع الحرية لمزارعى الأرض الذين لا يملكون حق التصرف المطلق فى ميراثهم les mainmortables [1] .

فمنذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر صارت الكنائس وكذلك الأمراء يمنحون أو يبيعون عقود التحرير . وكان أمير الإقطاع يتعرض فى غالب الأحيان للعسر والضيق المادى إذ يضطر إلى إنفاق مبالغ كبيرة للإصلاحات التى يجريها على

(١) La mainmorte نظام من نظم الإقطاع يقضى بعدم تصرف المزارعين فى أراضيهم إذا لم يكن لهم أولاد . كما كان هناك بعض الأملاك التى يحرم انتقالها من مالك إلى آخر كالمؤسسات الدينية والمستشفيات مما يجعل هذا النظام عسيراً (المترجم)

قصره حتى يظل فى حالة لائقة ، وهو بعد ذلك يواجه أسرته الكبيرة ونفقات خدمه وتابعيه ونفقات حرسه الخاص، كما كانت تقاليد الضيافة والحفلات والاستقبالات التى ينظمها من آن لآخر ترهق كاهله .
وبينما كان الأمير فى هذه الحالة من العسر كان المزارع من رقيق الأرض على العكس يثرى من بيع محصولاته . ولذلك فقد استغل الأمراء والملك رغبة هؤلاء الأرقاء فى التحرر لكى يعمروا خزائنهم بالمال ، وقد اضطروا لتحقيق هذه الرغبة تحت ضغط التحسن العام الذى طرأ على حالة الفلاحين والأهمية المتزايدة التى أصبحت لسكان الريف . وعلى ضوء هذه الظروف نستطيع أن نفسر القرارات المتعددة التى صدرت لتحرير الأرقاء Actes d'affranchissement ، وأهمها القراران اللذان أصدرهما « فيليب الجميل Philippe le Bel » فى سنتى ١٢٩٨ و ١٣٠٢ ، وقرار « شارل دى فالوا Charles de Valois فى سنة ١٣١١ ، وقرار « لويس لوهوتان Louis le Hutin فى سنه ١٣١٥ الذى جدده فيليب الخامس فى سنة ١٣١٧ . وقد أعلن الأمر المشهور الذى وجهه « لويس لوهاتان » إلى قاضى « سنليس Senlis »[1] إن الحق الطبيعى يحتم أن يولد كل إنسان حراً . ولكن الملك كما لاحظ « جيزو » لم يكن لديه مثل هذه الحماسة فى إعطاء الحرية للأرقاء بل أراد أن يساومهم عليها

---

(١) بلدة صغيرة فى شمال شرق باريس .

لمصلحة الخزينة . ومع ذلك ، فمما لا شك فيه أنه كان مقتنعاً بوجوب إعطاء هؤلاء الأرقاء الحرية وإن تم ذلك عن طريق البيع ، ومما لا شك فيه كذلك أن هؤلاء الأرقاء قد توفرت لديهم وسيلة شراء هذه الحرية . »

أما السبب الثانى الذى ساعد على التحرر التدريجى لأرقاء الأرض فهو خوف صاحب الإقطاع من أن يصبح يوماً فيرى إقطاعيته ، وقد خلت ممن يعملون فيها كما أنه كان يرغب تجنب القضايا الطويلة أمام المحاكم لإثبات حقوقه التى كانت تتناقص يوما بعد يوم . وقد غدا من الميسور أن ينتقل رقيق الأرض من إقطاعية إلى أخرى وتعذر على صاحب الإقطاع إذا وقع ذلك أن يحصل على إذن رسمى بطرده من محل إقامته الجديد وعودته إلى مكانه الأول . ومن جهة أخرى فقد كان كل سيد يرى نفسه مفتقراً إلى أرقاء لاستغلال إقطاعيته يحاول أن يجتذب إلى أرضه عمال الإقطاعيات المجاورة وذلك بإغرائهم بمزايا وحقوق خاصة . وهكذا انتهى الأمر إلى تحرير رقيق الارض كوسيلة لمنعهم من تركها ولاجتذابهم من الإقطاعيات المجاورة للعمل عند من يمنحهم حقوقاً أكثر .

يضاف إلى هذا أن تحرير الأرقاء كانت تمليه فى كثير من الأحيان دوافع دينية . فكلنا يعلم أن العصر الوسيط امتاز على

وجه الخصوص بقوة العقيدة ، وحرص الناس على العمل للسعادة الأبدية . ولم تكن عواطف الإحسان المسيحية غريبة على قلوب أصحاب القوة والنفوذ ، بل كانت لديهم نفس الرغبة فى استشعار فكرة الإحسان التى جاءت بها المسيحية واكتساب المغفرة على ما اقترفوا من ذنوب وخطايا ، وذلك بالعطف على الفقراء أو تحقيق العدالة بينهم . وكانت تلك الرغبة تستولى عليهم وهم على فراش الموت وعلى أهبة المثول بين يدى الله الذى يحاسبهم على ما قدمت أيديهم . ومما يحضرنا فى هذا الصدد ما قام به لويس السابع أثناء مرضه فقد حرر من جميع قيود العبودية وإلى الأبد جميع الأرقاء من ذكور وإناث وهم الذين كان يطلق عليهم اسم « الخدم الخاص » وذلك فى مدينة « أورليان » وفى نطاق دائرة قدرها عشرون كيلو مترا فى محيطها . وفى انجلترا كان عدد كبير من عقود التحرير التى صدرت فى القرن الخامس عشر يستهل بصيغة دينية تذكر بأن جميع الناس أخوة وبأن المسيح قد صلب من أجل الجميع .

فى ضوء هذه العوامل نستطيع أن نفسر كيف كان رق الارض يقل يوماً بعد يوم وكيف كانت حقوق السادة أصحاب الاقطاع على أرقائهم تضعف ضعفاً مطرداً .

خفت إذن وطأة الاسترقاق فاختفى الاسترقاق الشخصى اختفاء يكاد يكون كلياً وهو ما كان يتعلق بالرقيق الخاص Serfs de corps الذى يلصق بالأفراد منذ ولادتهم ولم يصبح لهذا النظام أثر ابتداء من مطلع القرن الثانى عشر وذلك لأن الأيدى العاملة المسخرة أو المستعبدة كانت تنتج انتاجا ضعيفا . هذه الحال نفسها هى التى حملت الرومان على السماح للعبيد بتقديم فديه من المال يفتدون بها أنفسهم ثم دفعتهم فيما بعد إلى احلال « نظام الاستعمار le Colonat »[1] محل نظام الرقيق وذلك باعطاء حق استغلال الأراضى للبرابرة الذين وقعوا فى الأسر . وقد أخذت أعباء الرق تخف شيئا فشيئا من القرن الحادى عشر إلى القرن الثالث عشر ولم يبق من آثاره إلا أثران أحدهما يتصل بقواعد الزواج le formariage والثانى بنظام انتقال الملكية la mainmorte . أما فيما يتصل بالزواج فقد ظل من المعمول به أن زواج الرقيق من امرأة حرة أو أجنبية عن الاقطاعية يقضى بأن تصبح رقيقا مثله . وأما نظام الوراثة بالنسبة للأرقاء وهو الذى أطلق عليه اسم «la mainmorte»[2] فقد كان يقضى بأن ما يملكه

---

(١) الاستعمار Le colonat فى معناه الأصلى نظام انشأه الرومان تعطى بمقتضاه الأراضى التى كان يملكها الأشراف لمزارعين أحرار نظير جعل معين يؤدونه إلى صاحب الأرض . (المترجم)

(٢) معنى الكلمة الحرفى « اليد الميتة » وربما جاءت التسمية من غل اليد عن التصرف المطلق فى الأرض . أنظر هامش ص ١٠١ . (المترجم)

الرقيق من عقار أو أشياء منقولة لايمكن أن ينتقل بالوراثة إلا لأولاده المقيمين معه فى الاقطاعية ؛ فاذا لم يتحقق هذا الشرط انتقلت الملكية إلى أمير الاقطاع . وعلى ذلك فلم يبق من نظام الرق إلا هذا الشكل الذى كان يحتم بقاء الذرية فى الأرض للاستمتاع بملكية أبيهم . وقد ساد هذا النظام فى مقاطعات « بورجونى Bourgogne » و« فرانش كوونتيه Franche Comté » ولكنه لم يطبق على رجال الكنيسة أو معلمى المدارس أو المزارعين حسب ماورد على لسان « مارسيل ماريون » فى قاموسه عن «نظم فرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر »[1] .

وقد أصبح العرف فى القرنين السابع عشر والثامن عشر أن يوضح فى كل قرار خاص بفرض ضريبة أو بعمل من أعمال السخرة أنه لم يصدر عن ارادة « السيد » المتعسفة بل عن رغبته المتعقلة المتزنة raisonable ، ولم تعد هناك اقطاعية واحدة لاتحدد الالتزامات وتوزع الأعمال بروح العدالة على رجالها . واختفى «قانون التعقب Droit de poursuite » الذى كان يلزم الرقيق بأن يظل تحت طلب السيد وسيطرته فى أى مكان يذهب اليه، ولم تبق آثاره إلا فى حالة « الخدم الشخصى » وحتى فى

(١) Marcel Marion : Dictionnaire des institutions de la France au XVII et XVIII Siécles.

هذه الحالة الأخيرة أصبحت المحاكم تأنف من تطبيقه، كما كان أمراء الاقطاع أنفسهم يتورعون عن المطالبة به. وقد كان القرار الذى صدر من برلمان باريس فى ١٧ أبريل سنة ١٧٦٠ وأنكر على أحد الأمراء فى مقاطعة « نيفرنيه Nivernais » حقه فى الاستيلاء على ميراث أحد أتباعه بعد أن توفى فى باريس — كان هذا القرار ضربة قاضية أطاحت بقانون التعقب .

لم تخف اذن وطأة الرق فحسب بل أنه أخذ يضمحل فى فرنسا أبان النظام الملكى حتى أصبح ظاهرة نادرة. ومنذ القرن الثالث عشر وهو الذى اطلق عليه « عصر التحرير العام لطبقة الرقيق » لم يبق هذا النظام قائما إلا فى مقاطعات أربع وهى «المارش» و «أوفرنى» و « بوربونيه » و « فرانش كونتيه » ويبدو من هذه الأسماء أنه استمر فى المناطق ذات التربة الفقيرة والمحاصيل القليلة كى يجبر الفلاحين على البقاء فى أراض كانوا ينتهزون أول فرصة للهجرة منها. ولكن التقدم الذى تحقق فى أساليب الزراعة فى القرن الثامن عشر جعل هذا التحوط أمراً لا مبرر له. ولذلك فإن لويس الخامس عشر الذى اشتهر بطيبة قلبه وبرغبته الصادقة فى اسعاد شعبه لم يتردد فى الغاء النظام البغيض الذى كان يحول بين الفلاحين وبين توريث أرضهم لمن يشاءون؛ كما ألغى الرق الشخصى فى أملاكه وعبر عن أسفه لأن احترام نظام الملكية يمنعه من إلغاء «هذه الآثار السيئة لعهد الاقطاع الغاشم» فى كل مكان. وقد تضمن هذه الاصلاحات

القرار المشهور الذى صدر فى أغسطس ١٧٧٩ [1]. على أن الرغبة التى عبر عنها الملك فى أن يرى نظام الاستيلاء على أراضى الفلاحين بعد موتهم قد أختفى تماما من مملكته، هـــذه الرغبة لم تكن قد تحققت بعد حتى عام ١٧٨٩ (وهو العام الذى قامت فيه الثورة الفرنسية) فقد بقى حتى ذلك الوقت عدد من الارقاء قدرهم دوق لاروشفوكو « la Rochefoucauld » بمائة وأربعين ألفا وقدرهم الأب كليرجيه « Clergé » بمليـــون وخمسمائة ألف ولكن الرقم الأخير فيه كثير من الغلو لانه صادر عن نائب من نواب طبقة الشعب.

هذه الرغبة ذاتها فى الارتقاء الاجتماعى وهذه الحركة نفسها التى أدت إلى تنازل الطبقات العليا والحاكمة عن كثير من امتيازاتها طوعا أو كرها هى التى ظهرت من قبل فى ارتقاء طبقة الدهماء les Plébéiens وحصولها على حق المواطنة. وقد تكلمنا عن هذه الحركة فيما سبق وهى التى تظهر اليوم فى تطور طبقة العمال وستسنح لنا الفرصة للكلام عنها فيما بعد.

التجـــدد الضرورى :

إن الجهد الذى تبذله طبقة دنيا للارتقاء الاجتماعى قد يصبح يسيرا هينا بسبب اضمحلال طبقة أخرى أو بسبب بعـــض

---

(١) أى قبل قيام الثورة الفرنسية بعشر سنوات تماما. (المترجم)

الضرورات التي تؤدى بها إلى اقتباس وسائل أخرى لحياة جديدة، ومن الأمثلة الواضحة التي تؤيد مانقول ارتقاء طبقة الدهماء فى روما والتقدم الذى أحرزته طبقة صغار النبلاء فى فرنسا بعد حرب المائة سنة وارتقاء البورجوازية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، إلى غير ذلك .

وقد لوحظ أن الأسر النبيلة الكبرى تندثر عادة بسرعة كبيرة وهناك شواهد تؤيد هذه الملاحظة فى كل من التاريخ القديم والوسيط والحديث . ففى روما القديمة لم يأت القرن الثانى قبل الميلاد حتى كانت الاسر القديمة gentes قد قاربت الاختفاء وأصبح «السناتو» يضم من أفراد الشعب أكثر مما يضم من الاشراف . وبالرغم عما كان ينص عليه القانون أصبح هناك فى عام ١٧٢ قنصلان من الشعب وفى سنة ١٥٢ ثم فى سنة ١٣١ ق . م أصبح هناك مراقبان من طبقة الشعب كذلك . وفى انجلترا لم يبق إلا عدد قليل من النبلاء النورمانديين وهم طبقة الغزاة الفاتحين . وفى أواخر القرن التاسع عشر لم يكن أصل ثلثى اللوردات يمتد إلى تاريخ أبعد من عام ١٧٦٠ . ونلاحظ نفس الأمر بالنسبة للأسر القديمة فى مقاطعة «برن Berne » بسويسرا وهى التى تنتمى إلى البورجوازية العريقة فقد كان عدد هذه الأسر فى سنة ١٦٢٣ مائة واثنتى عشرة أسرة فاصبحت فى عام ١٧٩٦ ثمانى وخمسين أسرة ليس غير . هذه الظاهرة

حتمت تدخل عناصر جديدة أو رجال جدد homines novi ، كما يقول الرومان ، فى الطبقات الحاكمة التى قضت عليها أحداث الزمن . فحين حصدت حرب الوردتين فى انجلترا وحرب المائة سنة فى فرنسا طبقة النبلاء العليا يسرت بذلك الارتقاء الاجتماعى لعدد من الأسر لم تكن تطاولها فى العراقة أو المجد وأدى ذلك إلى تكوين طبقة جديدة من صغار النبلاء .

والمطلع على التاريخ يرى قانون التجدد هذا ضرورة فرضت نفسها على مختلف الجماعات الانسانية ، سواء أكانت قبائل أو مدنا أو دولا ، وذلك حين تجد نفسها معرضة بسبب حوادث التاريخ إلى التناقص فى العدد أو الافتقار إلى الأكفاء من الرجال أو إلى المتخصصين فى الميادين المختلفة أو إلى العمال المدربين . فتناقص نسبة المواليد أو الهجرة أو الحروب أو الأوبئة أو الثورات كل هذه عوامل تضعف من حيويه الدول بشكل ملحوظ وتدفعها إلى البحث عن الوسائل الكفيلة بتعويض خسائرها . ولذلك لا يدهشنا أن نرى بعض الطوائف الاجتماعية وخاصة الطبقات الأرستقراطية تلجأ عن رغبة أو عن حاجة إلى ضم بعض الأعضاء الجدد اليها لتدعيم قوتها . وقد حدث ذلك للهنود الحمر إذ لجأوا إلى التبنى حين وجدت بعض القبائل أن عددها يتناقص كما أن أمراء الاقطاع أخذوا — كما بينا من قبل — يحاولون اجتذاب رقيق الأرض الذين يعملون فى اقطاعيات مجاورة إلى أراضيهم

كذلك أخذت المراكز الكبيرة والمدن الحرة تفتح أبوابها للاجئين من العبيد وأعلنت أن كل من يحتمى فى أراضيها منهم يصبح حراً طليقاً بعد مرور عام ويوم على استقراره فيها . ولذلك أصبح من الأقوال التى جرت على الألسن ، أن جو المدينة يمنح الحرية ، وقد لجأت روما إلى بعض الوسائل المماثلة بعد أن أنهكتها الحروب المتصلة ضد قرطاجنة وسببت لها خسائر فادحة فى الرجال ؛ وأدى بها حرصها على الاحتفاظ بقوتها العسكرية إلى منح حق المواطنة للايطاليين ولسكان الأقاليم كما أعطت حق الانتخاب لكثير من العناصر الأجنبية بعد أن حررتهم وكانوا قبل ذلك أسرى حرب جلبهم الجنود إلى روما بعد غزو أراضيهم وأخضعوهم لنظام الرق.

وقد سهلت أسباب مماثلة دخول طبقة الشعب فى مجلس « السيناتو » وحين تقلد أحد أشراف روما وهو « ابيوس كلوديوس كوكوس Appius Claudius Coecus » منصب القنصل فى سنة ٣١٢ أخذ يعارض فى قبول أحد من أفراد الشعب فى هذا المنصب كما عارض مطالبة طبقة الشعب بالمساواة فى الحقوق الدينية. ولكنه مع ذلك عمل على قبول عدد من أبناء العبيد المتحررين أعضاء فى السناتو بشرط أن يكونوا مالكين للنصاب القانونى وأدخل فى عداد المواطنين عددا من السكان الذين كانوا لا يملكون ملكية عقارية واحتال على ذلك بمنح أصحاب الملكية المنقولة حقوقا مساوية لحقوق أصحاب الملكية العقارية فحقق بذلك إصلاحا

اجتماعيا يمكن مقارنته باصلاحات « كلستين clisthéne »
وبريكليس فى أثينا وباصلاحات « دنيس » و « أرختياس » فى
سيراكيوز . وقد حاول بهذه الاصلاحات أن يعدل التنظيم الطبقى
الذى كان قائما على سيادة الأشراف بحيث يتلائم مع الحالة
الاجتماعية الجديدة وأن يضفى الصفة الشرعية على التطور الذى
تم بالفعل فى العرف والعادات بحيث يمكن أن يستغله لصالح الدولة.
ففى الوقت الذى أخذت الثروة فيه تحتل مكانها إلى جانب عراقة
الأصل وتحاول أن تتفوق عليها أدرك هذا المصلح قيمة القوة
الجديدة التى أخذت تتركز فى أيدى عدد من أفراد الشعب ممن
يملكون الثروات المنقولة ولذلك فانه لكى يحتفظ للاشراف بممارسة
السلطان حاول أن يضع بجانبهم « زملاء » من خيرة أفراد الشعب
وذلك بضمهم أعضاء فى مجلس « السناتو »

فاذا انتقلنا إلى محيط طبقة النبلاء فى فرنسا وجدنا نزعة مشابهة
للتجديد وإدخال عناصر جديدة فيها وخاصة بعد أن فنى عدد
كبير من أفراد هذه الطبقة فى المواقع العديدة أثناء حرب المائة
سنة . فتكونت طبقة جديدة من النبلاء فى القرن السادس عشر
وهو العصر الذى بدأ فيه اصلاح مساحات شاسعة من الأراضى
وتطهير كثير من الغابات لاعدادها للزراعة فظهر أثر ذلك فى حال
الفلاح الذى أثرى وأصبح كما يروى لنا « كاود هاتون Haton »
يرى حظيرته وقد غصت بالمواشى وامتلأت أصونته (جمع صوان)

بالملابس ومنزله بالأثاث الفاخر بما أضفى عليه سمة النبلاء . وحينئذ أخذ النبلاء الذين يقتضى مركزهم أن يكرسوا أنفسهم وأملاكهم لخدمة الدولة أخـذوا يبحثون عن وسيلة لجلب المال اللازم « لنفقاتهم ولخدمة الملك » فلم يجدوا خيراً من اصلاح أراضيهم والعناية بالزراعة ؛ بل أنهم لجأوا إلى بيع محاصيلهم بأنفسهم فى الأسواق . فتكونت بذلك نواة طبقة جديدة من نبلاء الريف Gentilshommes Champêtres كانوا يكرسون ربع العام لخدمة الملك كما كانوا يقولون حينئذ ، أى أنهم كانوا يقومون بواجبهم نحو الملك ثلاثة أشهر من السنة ويتطوعون كذلك فى الجيش فى زمن الحروب ويقضون بقية العام فى ممارسة الزراعة والتجارة. فغدوا بذلك — حسب قول سفير البندقية « ميشيل سوريانو Michel Suriano »مصدر القوة الأساسية لمملكة فرنسا . ولكن لسوء الحظ اصطدمت هذه الطبقة الارستقراطية فى كفاحها الجديد بتعنت ممثلى طبقة الشعب وأنانيتهم . فأدعى الفلاحون أن« النبلاء ليس لهم حق ممارسة التجارة » ورفض نواب الشعب فى مجلس الأمة طلب النبلاء الذين أرادوا الإثراء عن طريق ممارسة التجارة. وأعان أحد النبلاء فى نورمانديا بقرار من البرلمان بأن حقه فى لقب النبالة قد سقط لأنه كون ثروة عن طريق تربية العجول . فمن حق النبيل أن يستغل أراضيه ولكن ليس له أن يثرى عن طريق التجارة . وهكذا انتهى الأمر باعاقة حركة التجديد هذه التى كان يمكن لو أنها استمرت أن تؤدى الى التقريب بين الشعب والنبلاء وتحول دون حدوث

الأزمة الاجتماعية التى أدت إلى نشوب الثورة الفرنسية . ولم يجد النبلاء مناصا من الاحتفاظ بروح الطائفية التى كان يمكن أن تختفى باندماجهم فى المهن المختلفة بدلا من اقتصارهم على صناعة الحرب ، ولا شك أن احتفاظهم بهذه الروح كان العقبة الكؤود فى سبيل تجدد المجتمع . ومما لاحظه « تكفيل Tocqueville »[1] فى هذا الصدد أن روح الطائفية هذه لم يكن لها وجود بين الأرستقراطية الانجليزية إذ كان النبلاء والسوقة منذ عدة قرون يختلط بعضهم ببعض فى مهن واحدة وكان بعضهم يتزوج من بعض ويقومون بمشروعات واحدة حتى أصبح التمييز بين السوقة والنبلاء لا وجود له وأصبح لقب « جنتلمان Gentleman » يطلق فى انجلترا على كل إنسان . وقد أدت به هذه الملاحظة إلى القول بأن « نظام الاقطاع قد انتهى فى كل مكان استقر فيه إلى خلق روح الطائفية فيما عدا انجلترا فانه تحول فيها إلى الأرستقراطية » ، وكان من نتيجة ذلك أن ظل النبلاء الانجليز يؤدون خدماتهم لصالح الدولة ويلعبون دوراً هاما فى الحياة السياسية على حين أن طبقة النبلاء فى فرنسا باقتصارها على الفروسية

---

(١) توكفيل أحد أساطين السياسة فى فرنسا فى القرن التاسع عشر (١٨٠٥ — ١٨٥٩) وقد اكسبه نبل أخلاقه وبعد نظره فى السياسة تقدير الأحزاب المختلفة . أشهر مؤلفاته « الديموقراطية فى أمريكا » — و « النظام القديم والثورة L'ancien Régime et la Révolution . (المترجم)

ظهرت فى كثير من الأحيان بمظهر الطموح والمشاكسة وحب الشغب مما دفع ريشيليو ولويس الرابع عشر إلى انتهاج سياسة ابعادها شيئاً فشيئاً عن الحكومة .

أهمية الخدمات التى تؤديها الطبقة :

والواقع أن ارتقاء طبقة من الطبقات يكون فى العادة وثيق الصلة بالخدمات التى تؤديها هذه الطبقة وبدرجة التقدير التى يضفيها المجتمع بصفة عامة على هذه الخدمات . وللتدليل على قولنا هذا نستعرض الخدمات التى كان يؤديها نظام الاقطاع والكنيسة فى مجتمع العصر الوسيط .

تكون نظام الإقطاع خلال قرون عديدة تحت ضغط حاجات اجتماعية ملحة ، إذ بدأت معالمه تلوح أثناء انحلال الإمبراطورية الرومانية وفى العصر الذى بدأت فيه هجمات البرابرة . وما لبث أن أتيحت له كل أسباب الازدهار أثناء الأزمة التى مرت بها أوربا حين غزاها النورمانديون والمجر والعرب فخربوا قراها ونهبوا مدنها . وحينئذ استعان كبار الملاك بما لديهم من أعداد كبيرة من العبيد والخدم فاستخدموهم فى بناء القلاع المحصنة وكونوا منهم الجيوش المدافعة ووجدوا أنفسهم بذلك فى حالة تسمح لهم ببسط حمايتهم على السكان فى منطقتهم فأصبحت هذه الحماية مصدراً للنفوذ والسلطان فى آن واحد . أما النفوذ فرجعه إلى الخدمات

التى كانوا يؤدونها للسكان والأمل الذى كانوا يبعثونه فى نفوسهم فى ساعات الخطر ، والأمن الذى كانوا يضمنونه لحياتهم المستقبلة؛ وأما السلطان فمرجعه إلى تزايد قوتهم وثروتهم بفضل جهود كل من كانوا يلوذون بهم ويطلبون حمايتهم . وما لبث هؤلاء الأفراد الذين كانوا فى الأصل من كبار الموظفين أو أصحاب الثراء أن أصبحوا « أمراء إقطاع Seigneurs féodaux » . وأخذوا بعد ذلك يحيطون قراهم بالخنادق والحواجز المرتفعة ويقيمون مراكز يحرسها رجال مسلحون فى الأماكن التى تزخر باللصوص وقطاع الطرق وكان من عادتهم إقامة مخبز عام يحضر إليه الفلاحون من الجهات القريبة لإنضاج خبزهم وكذلك إقامة البيعات والكنائس. وأن ما كانوا يرفلون فيه من نعيم ورخاء كان من نسج أيديهم إلى حد ما ؛ فما كان من الممكن أن يتحقق لولا ما قاموا به فى أراضيهم من إقرار السلام والأمن الضروريين للعمل وذلك بفضل شجاعتهم ووضعهم لأسس العدالة الطيبة الحازمة . وعلى ذلك فإن خدماتهم التى لم يكن أحد يستطيع إنكارها فى تلك العصور، بل لا يستطيع أن يستغنى عنها ، هى التى كانت تبرر الامتيازات والحقوق التى حصلوا عليها .

ولكن بعد حكم لويس التاسع (القديس لويس) تغيرت الحال عما كانت عليها من قبل فانتعشت الزراعة وبدأت الصناعة فى الظهور ونمت التجارة وأصبحت الحكومة الملكية هى التى تكفل

السلام والأمن العام . وحينئذ بدأ أمراء الاقطاع يفقدون سلطتهم ونفوذهم . إذ أخذ الناس يتحولون عنهم إلى الملك وأصبحوا ينظرون إليه كما ننظر نحن اليوم إلى الدولة . والواقع أن جهود الملك أصبحت تفوق جهود امراء الاقطاع فى حماية السكان وفى إقرار العدالة وفى الأخذ بناصر الضعفاء وفى إدارة الشئون العامة وغدت رسوم المرور على الجسور « Péages » والرسوم التى تفرض على نقل التجارة « tonlieux » ورسوم الانتفاع الإجبارى بما يقدمه «السيد» من خدمات — غدت هذه الرسوم التى كان يفرضها رجال الاقطاع والتى كان يرتضيها الناس من قبل فى مقابل الخدمات التى يحصلون عليها، عقبات فى سبيل إزدهار التجارة واستغلال الأراضى الزراعية . وانتهى الأمر بأن أصبحت الحقوق والامتيازات التى يطالب بها امراء الاقطاع لا تستند إلى ما يبررها .

ويمكن تفسير سيادة الكنيسة فى العصور الوسطى بأسباب مماثلة . ويقول لنا « جيزو Guizot » فى هذا الشأن أنه « على حين أن الحالة المعنوية للشعب كانت تنحط يوما بعد يوم بسبب الاضطراب العام الذى ساد المجتمع كانت الكنيسة تتطلب من رجالها قدراً أوفر من العلم والذكاء ومتانة الخلق وذلك بعد أن اتسع نطاق علاقاتها بالمجتمع المدنى وأصبح مذهبها ونظامها أكثر تعقيداً وصعوبة » . ويمكن القول أن هذا النظام الكنسى الصارم

قد بدأ فى أواخر عهد الامبراطورية الرومانية . فبينما كان أعضاء المجالس البلدية Les curiales المنوط بهم أمر إدارة المدن يتسمون بالبلادة وثبوط الهمة، كان الأساقفة والقسس يقدمون أنفسهم ويتطوعون لمراقبة كل شيء وإدارة كل شيء مستمدين القوة من إيمان الناس بهم ومدفوعين فوق ذلك بروح الاقدام والحماسة . وحينئذ لم تتردد السلطة المركزية فى الإفادة من هذا الموقف فاضفت الصفة الشرعية على تدخل الأساقفة فى الشئون البلدية . ولذلك نجد أن قوانين ثيودوسيوس Théodose وجستينيان Justinien، تحوى عدداً من البنود التى تتصل بهذا الموضوع ، إذ خولت للأساقفة حق الاشتراك فى اللجان التى تشرف على المشروعات العـــامة والتى تراقب حسابات المتعهدين فى كل ما يتصل بمستودعات المؤن والقنوات والحمامات العامة واستحكامات الدفاع التى تحوط المدن الخ . . وأخذ رجال الكنيسة كذلك يعينون بالاشتراك مع قاضى المدينة ، المربين والمثقفين للشبان فى مرحلتى الشباب الأولى والثانية ويختارون بالاتفاق مع أعيان المدينة وأعضاء المجلس البلدى والقضـاة (Duumvirs) حماة المدينة (Defensores civitatis) وهم الفئة التى أوجدها فالنتينيان Valentinien الأول فى النصف الثانى من القرن الرابع وكانت مهمتها تنحصر بوجه عام فى مراقبة مندوب الضرائب ، والموظف الذى يحدد ما يدفعه كل فرد منها ، والقاضى ، أى أنهم

كانوا مكلفين بمنع التعسف وبحماية الشعب من تطاول الموظفين وغطرستهم ومن زيادة الأعباء الضرائبية ومن كل ظلم أيا كان مصدره. وهكذا نرى أن الظروف التى وجد فيها المجتمع اضطرته إلى الالتجاء — حتى يحفظ كيانه وينجو من الانهيار — إلى أكفأ الناس فيه وأكثرهم إخلاصا وحدبا على الصالح العام مما أضفى على الطبقات الأكثر علما والأكثر نشاطا (وهى طبقات رجال الكنيسة) نفوذا ومكانة ميزتهم عن مجموعة أفراد الشعب . وهذه الظروف هى التى جعلت الملوك فى العصور الوسطى بل وفى عصور تلتها ينتخبون فى غالب الأحيان مستشاريهم وسفرائهم من بين رجال الكنيسة لأنهم كانوا يمثلون حينئذ أكثر الطبقات ثقافة وعلما . ومن أشهر من عرفهم التاريخ من هؤلاء « سوجيه Suger » « وريشيليو Richelieu » والكردينال « فلورى Fleury » .

على أن الحال قد تغيرت فضعفت سلطة رجال الكنيسة ونفوذهم بمقدار ما أصبحت الخدمات التى يؤدونها أقل ضرورة للمجتمع وذلك بسبب انتشار التعليم المتزايد الذى يرجع الفضل فيه إلى اختراع آلة الطباعة . كما أن تقدير الناس لهم أخذ يضعف نتيجة لضعف العقيدة فى نفوسهم بعد أن أثرت فيها الحوادث المؤسفة التى أدت إلى الانقسام الكبير فى الدين وإلى وقوف اثنين من البابوات أحدهما فى وجه الآخر وتفرق المسيحية بينهما . ثم جاءت بعد ذلك حركة الإصلاح البروتستنتى وأعقبتها سلسلة الجدل

العنيف المقيم بين رجال اللاهوت ، ثم المعركة التى نشبت فى القرن السابع عشر بين أنصار « جانسنيوس Le Jansénisme » واليسوعيين[١] وأخيراً قضى على هيبة الدين هجوم الفلاسفة[٢] فى القرن الثامن عشر .

مثال لطبقة تتدهور النبلاء :

يتيح تدهور طبقة من الطبقات ارتقاء طبقة أخرى فى العادة . وعكس هذا صحيح فإن ارتقاء إحدى الطبقات تكون نتيجته بوجه عام الإسراع بطبقة أخرى إلى التدهور . ومن الطريف أن ندرس فى هذا الصدد تطور طبقة النبلاء وطبقة البورجوازية فى فرنسا .

فمنذ عهد شارلمان بل وقبل ذلك أى فى عصر أسرة الميروفنجيين Mérovingiens ، كانت الخدمة العسكرية واجبة على كل إنسان حر له من الثراء ما يسمح له بالتسلح واعداد نفسه للحرب على نفقته الخاصة . وفى عصور الاقطاع كانت هناك تفرقة واضحة بين « أراضى النبالة » التى يجب على أصحابها أداء الخدمة العسكرية وبين أراضى السوقة Terres roturières التى كان يجب على محتليها دفع الضرائب أو القيام بأعمال السخرة . غير أن هذا الوضع

---

(١) اشترك فى هذه المعركة مع أنصار جانسنيوس الذين عرفوا بجماعة بور رويال Port Royal ، ضد اليسوعيين ، الفيلسوف بسكال. (المترجم)

(٢) أمثال فولتير وديدرو ودالمبر (جماعة الإنسكلوبيديا) . (المترجم)

قد تغير ابتداء من القرن الثانى عشر وأصبح لـكل اقطاعى الحق فى مطالبة مزارعيه بواجب الدفاع . ولـكن هذا الحق اقتصر على نطاق اقطاعيته وحين يهاجمها مهاجم أو تصبح قلعـة الأمير مهددة . وقد نظمت لوائح التقسيمات الريفية ذلك الواجب الذى كان يتضمن قيودا وشروطا عدة . والذى يهمنا فى الأمر أن النبلاء وجدوا أنفسهم مضطرين لدعوة السوقة لحمل السـلاح فى أوقات معينة وكانت هذه الوظيفة خاصـة بطبقة النبلاء من قبل . وجاءت الحروب الصليبية وغزو النورمانديين لانجلترا فتضاعفت الحاجة إلى أفراد الشعب فى ميادين القتال . وعندما تم تنظيم المدن إلى وحدات صغيرة آخر الأمر ، نشأت الميليشيا المحلية Milices التى تتكون من حفظة الأمن تحت قيادة ضباط البـلدية ، ولم تعد كما كانت من قبل تحت قيادة مندوب أمير الاقطاع . وعندما أوقفت الحـكومة الملـكية حركة الانقسام إلى وحدات محلية وضع رجال الميليشيا تحت رقابة مندوبين ملـكيين (أطلق عليهم حسب قول « بوتاريك Boutaric » اسم مندوبى الحرب أو « المختارين élus ») . وغدت الميليشيا على هذا النحو أهم العناصر التى يعتمد عليهافى الدفاع الوطنى وأسهمت إسهامامروعا إبان حكم فيليب أوجست Philippe Auguste فى احراز النصر فى موقعة « بوفين » . ومنذ ذلك الحين ظهرت بوادر التطور الذى كان له شأن حاسم فى تقرير مصير النبلاء إذ لم يعد للنبلاء الحق وحدهم دون غيرهم

فى حمل السلاح وأصبح من الممكن فى الوقت نفسه أن يرتقى السوقة إلى مرتبة النبلاء عن طريق التفوق فى أعمال الفروسية .

ثم وجهت إلى طبقة النبلاء ضربة أخرى قاصمة حين قرر شارل السابع إنشاء جيوش دائمة ؛ وترتب على هذا القرار أن أصبح الملك يستطيع دعوة رعاياه مباشرة لحمل السلاح حين يذهب للحرب بدلا من الالتجاء إلى وساطة رجال الإقطاع كما كان يحدث من قبل . وأصبحت له فرق خاصة من الفرسان والمشاة وجنود المراسلة والرماة .

وساعد إنشاء فرق الرماة على وجه الخصوص على إعداد كل رجل حر فى الدولة لأن يكون جندياً وشعر الشعب بأنه حين يحمل السلاح يمارس حقاً من حقوقه وأخذ ينافس النبلاء فى حفظ الأمن وفى الدفاع عن الوطن . وأخذ ضباط الملك يختارون الجنود من بين الرجال القادرين على تحمل أعباء الخدمة العسكرية ويطوفون بكل قرية لاختيار من يصلح فيها للجندية . وكان من يقع عليهم الاختيار يعفون من ضريبة الدخل ومن الأعباء الأخرى فيما عدا المساعدات التى يقدمونها للحرب وضريبة الملح gabelle ؛ فإن لم تكن هناك حاجة إلى دعوتهم لحمل السلاح ظلوا فى قراهم يباشرون أعمالهم المعتادة . ويقول بوتاريك «إنهم وإن كانوا قد قدموا خدمات قليلة فى أوقات الحروب إلا أنهم مع ذلك كانوا النواة التى غدت فيما بعد فرق المشاة الفرنسية القوية» . وقد حدد

قرار أصدره لويس الحادى عشر عددهم بستة عشر ألف جندى ينقسمون إلى أربع فرق كل منها يتكون من أربعة آلاف مقاتل تحت إمرة قائد عام .

ولم يجد النبلاء بدآ من الانخراط فى سلك الجيش العامل فوضعوا بذلك أنفسهم تحت إمرة الملك مباشرة . وكان كل من يشعر منهم بشىء من الطموح أو الميل إلى صناعة الحرب ينضم إلى فرق الحرس الملكى ، بل أن بعض صغار الشبان من النبلاء كانوا يضعون أنفسهم فى احتياطى الجيوش بوصفهم متطوعين ويظلون ينتظرون حتى يسمح لهم تطور الحرب وخلو بعض الأماكن فى الفرق المختلفة بالدخول فى سلاح الفرسان الملكى ؛ بل لم يأنفوا من الانخراط فى سلك الرماة الفرسان ومنهم من كان يشترى أحد هذه المراكز من أصحابها مما يشير إلى حرصهم الشديد على الاندماج فى سلك الجيش العامل . والواقع أن خدمة الملك كانت مصدر شرف وكسب فى آن واحد ولكن النبلاء حين أظهروا هذه المرونة وذلك الخضوع للنظام فقدوا فى الوقت نفسه استقلالهم بقبولهم الرواتب كفرسان فى جيش الملك وتعودا على أن ينظروا إلى الملك كمصدر للنعم والمنح .

ثم جاء اختراع الأسلحة النارية التى أخذت تتقدم فى اطراد وسرعة فأضعف ذلك كثيرا من شأن الفرسان المدرعين بدروع

الحديد كما أضعف من مقاومة القصور المحصنة التى أصبحت المدفعية تدكها دكا . وبدأ النبلاء يفهمون أن المشاة سيكون لهم الكلمة الحاسمة فى المواقع ، ومن ثم فقد قبلوا أن يكونوا قوادا الفرق المشاة بل ارتضوا كذلك أن يكونوا مجرد جنود فيها ليتدربوا على الأسلحة الحديثة. فترك «بليزدى مونلوك Blaise de Monluc» فى القرن السادس عشر سلاح الفرسان ليدخل المشاة كما أراد «بونتيس Pontis» فى القرن السابع عشر رغم كونه ضابطا، أراد أن يتعلم كيفية استخدام البندقية كجندى بسيط . على أن هذه المحاولات جميعاً لم تفلح فى إخفاء الحقيقة وهى بدء اضمحلال طبقة النبلاء .

ويقول لنا بوتاريك مرة أخرى أن لويس الثانى عشر أدخل الطبقة النبيلة Gentilshommes فى خدمة سلاح المشاة وقسم هذا السلاح إلى ألوية وعهد بكل لواء منها إلى عدد من النبلاء . وفى أثناء حكم فرانسو الأول وهنرى الثانى كان الشبان من النبلاء يتدربون على حمل السلاح اما بالخدمة كرماة فى صفوف مساعدى الضباط أو بالخدمة فى ألوية المشاة فى رتبة تساوى رتبة الجاويش الحالية . ولكنهم فى أواخر القرن السادس عشر عادوا يستنكفون من المرور بمراحل التدريب هذه وأدعوا لأنفسهم أنهم جديرون بالوصول دفعة واحدة إلى الرتب التى ما كانوا يحصلون عليها من قبل إلا بعد سنين طويلة فى خدمة الجيش . وقد أشارت المذكرات

التى كتبت فى ذلك العهد ومنها مذكرات « مونلوك Monluc » ومذكرات المرشال دى فييفيل De Vieilleville إلى عدم كفاية الأجيال الجديدة فى شئون الحرب وإلى مقدرتها المحدودة كما وصف هذه الحالة أيضادوبينيه D'Aubigné فى كتابه الطريف « بارون دى فونست »[1] . وكانت هذه الخبرة المحدودة وعدم الكفاية من الأسباب التى أدت إلى تدهور الجيش فى خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر بعد أن كان أحد سفراء البندقية وهو ميشيل سوريانو الذى يحكم عن خبرة وحياد ينظر — قبل ذلك بقرن واحد — إلى طبقة النبلاء الفرنسية على أنها مصدر القوة الحربية لمملكة فرنسا .

ويبدو أن ذلك كان من العوامل التى أدت إلى السماح لأفراد طبقة الشعب بالوصول إلى رتب صغار الضباط . ولنذكر أن ريشيليو أنشأ مدرسة لتدريب الجنود والوصول بهم إلى حالة من الكفاءة تمكنهم من قيادة غيرهم . وقد احتوى قراره الصادر فى ١٦٢٩ على هذا البند وهو أن « الجندى يستطيع بمجهوده وتفانيه فى الخدمة أن يرقى من رتبة إلى رتبة حتى يصل إلى رتبة رئيس الفرقة بل قد يصل إلى رتبة أعلا منها إذا أظهر استحقاقه لذلك » . وبالإضافة إلى ذلك فإن حاجة الجيش إلى مهندسين عسكريين جعله لا يتردد فى انتخابهم من بين طبقة الشعب كما حدث

(١) Le Baron de Foeneste .

فى حالة سانت هيلير Saint Hilaire الذى كان ابن صانع أحذية. بل لقد كان يختار لهذه الوظائف أقل النبلاء جاها وثراء وقد كانت هذه حال « فوبان Vauban » الذى كان يصف نفسه بأنه «أفقر نبيل فى فرنسا». وعلى هذا النحو أصبحنا نجد فى القرن الثامن عشر كثيراً من أمثال « لازار كارنو Carnot » الذى صار ضابطاً فى سلاح المهندسين دون أن يكون منتمياً إلى طبقة النبلاء. كما كان أى فرد من أفراد الشعب يستطيع أن يصل إلى رتبة «الصاغ» Major بل إلى رتبة البكباشى Lieutenant-Colonel ثم يقف عند هذا الحد فلا يستطيع تخطيه إلا إذا حصل على رتبة النبالة. وهكذا وقف النبلاء حيارى ينظرون فى قلق إلى السوقة وهم يحتلون باطراد أماكنهم فى الوظائف الحربية التى ظلت مدة طويلة العامل الأساسى فى نفوذهم وسطوتهم. على أنهم لم يكونوا فى كثير من الأحيان يقومون بواجبهم على الوجه الأكمل. فقد شكا فيلار Villars فى سنة ١٧٠٣ من أن الضابط من النبلاء لم يكن يستطيع البتة أن يألف « الخدمة المنتظمة »، وكان عدد كبير من النبلاء فى حاجة إلى التدريب وإلى الخبرة كما كان انسياقهم لحياة الترف سبباً فى شيوع الفوضى. ويؤكد الثقاة أن الهزائم التى منى بها الجيش الفرنسى فى الحملات التى تمت فى أواخر عهد لويس الرابع عشر كانت نتيجة حتمية لعدم كفاية الضباط النبلاء واستخفافهم بالأمور وغطرستهم.

وليست الأسباب التى ذكرنا وهى ارتفاع شأن المدفعيه والأسلحة النارية واختيار الضباط من خارج طبقة النبلاء وقلة الخبرة وضعف الحماسة وعدم احترام النظام، ليست وحدها الأسباب التى غضت من الخطورة الاجتماعية لطبقة النبلاء من الناحية العسكرية بل يمكن أن يضاف اليها أسباب أخرى ليست أقل قيمة . وأهمها ازدياد السلطة الملكية وبدء العدالة الملكية فى حصر السلطة القضائية لأمير الاقطاع فى أضيق نطاق وعلى درج، وذلك بانشاء البرلمانات والقيام بالمشروعات العامة على نطاق واسع دون الرجوع إلى أمير الاقطاع وإنشاء نظام مندوبى الملك فى الأقاليم les intendants فى عهد ريشيليو . فأصبح دور النبلاء يقتصر على الناحية العسكرية وأبعدوا عن جميع الوظائف الأخرى التى كانوا يضطلعون بها من قبل . وحتى فيما يختص بالوظائف العسكرية التى تركت لهم فقد وجدوا أن السوقة بدأوا يزاحمونهم فيها .

أما السبب الأخير فى تدهور طبقة النبلاء فيرجع إلى الفقر الذى حل بهم . إذ لما كانت الجعول التى يتقاضونها من الفلاحين ثابتة لاتزداد بينما أخذت القوة الشرائية للنقود تضعف أصبح دخل الاقطاعى فى تناقص مستمر فى حين كانت الأثمان التى يبيع بها الفلاح حاصلاته فى صعود مستمر . على هذا النحو حاق الخراب بكبار الاقطاعيين الذين لجأوا إلى الاستدانة للوفاء بالتزاماتهم ثم

اضطروا لبيع أراضيهم فاشتراها منهم رجال المال الذين أثروا عن طريق التجارة والسوقة بل والفلاحون أنفسهم الذين كانوا من قبل عبيد الأرض . واضطر النبلاء إلى البحث عن الثروة فى البلاط الملكى وفى الجيش . وأصبحوا مفتقرين إلى عطف الملك لكى يعيشوا بعدأن حرمت عليهم ممارسة أى حرفة تجارية . وقد تنازلت السلطات لهم عن شىء من دخل الكنيسة رغبة فى مساعدتهم . وقبيل نشوب الثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩ كان عدد كبير منهم غارقا فى الديون ، وبينما كانت طبقة النبلاء تتدهور على هذا النحو كانت طبقة أخرى ترتقى وتصعد مكونة نوعا جديداً من النبالة لاتقوم على الفروسية بل على قوة المال ونعنى بها طبقة البورجوازية .

مثال لطبقة ترتقى : البورجوازية

بينما كانت طبقة النبلاء يحرم عليها ممارسة جميع المهن فيما عدا الوظائف العسكرية كانت البورجوازية تحتل وظائف الادارة والمالية والقضاء وبينما كانت جميع مصادر الثروة قد نضب معينها فى وجه النبلاء فيما عدا بعض وظائف البلاط التى احتفظ لهم بها كانت البورجوازية تثرى بجميع الوسائل والسبل .

وقد كتب « بوييه Bouillé » فى مذكراته أنه « منذ قيام الجمعية الوطنية بطبقاتها الثلاث فى ١٦١٤ كانت فرنسا قد أسست

مستعمراتها فى أمريكا وأنشأت المصانع الكبرى وجعلت أوربا وجزءاً كبيراً من العالم يعتمد عليها فى الصناعة فعم الثراء نتيجة لذلك ؛ غير أنه لم يفد منه إلا أفراد الطبقات الشعبية لأن ممارسة التجارة والفنون الآلية أيضاً كانت حرمة على طبقة النبلاء وقد أدى ازدياد المال والعملة النقدية على أثر استغلال مناجم الذهب والفضة فى أمريكا إلى زيادة فقر النبلاء . وأخيراً فان ازدهار الحياة فى المدن الكبيرة بسبب انتعاش التجارة والصناعة قد قضى عليهم بالخراب .

وحين ظفرت طبقة الشعب بتفوقها فى الثروة على النبلاء وانصرفت بكليتها إلى التجارة والصناعة أصبحت فى حاجة متزايدة إلى مزيد من العلم والمعرفة وما لبثت حين أتيح لها ذلك أن تفوقت كذلك على النبلاء فى المواهب والقدرات الشخصية وقد شهد بذلك المركيز دى بوييه الذى كان قائداً ممتازا وأتصف بالذكاء ورجاحة العقل .

ومن الأسباب الأخرى التى أدت إلى اضعاف طبقة النبلاء القديمة قيام نوع جديد من النبالة ليست لها الصفة العسكرية ولا تشترك مع الطبقة القديمة الا فيما تتمتع به من امتيازات وحقوق .

فعندما أثرى أفراد الشعب عن طريق التجارة والصناعة أخذوا يتطلعون إلى ألقاب النبالة وما لبثوا أن وجدوا الفرصة سانحة لذلك حين أفتقرت الخزانة الملكية إلى المال فدفع ذلك الحكومة إلى بيع ألقاب النبالة. وقد حدث أن عيّر بعضهم «كارون دى بومارشيه Beaumarchais» بأن نبالته ليست أصيلة فأجاب فى سخرية لاذعة بأن النبالة من حقه ولا يستطيع أحد أن ينازعه فيها ما دام قد اشتراها بالمال. وبالاضافة إلى ذلك فإن وظائف القضاء Les magistratures كانت منذ حكم هنرى الرابع من الوظائف التى تشترى بالمال وكان امتلاكها يخول لأصحابها لقب النبالة[1].

وقد أعفيت طبقة النبلاء الجديدة هذه من الخدمات التى كانت تقع على كاهل الطبقة القديمة وأهمها الخدمة فى الجيش فلم يكن لها إذن أى صفة عسكرية. وفى أول ديسمبر سنة ١٧٧٤ صدر قرار باعفائها من الخدمة فى صفوف «الميليشيا» (أو الحرس الوطنى) وكان اختيار أفراد هذا الحرس يتم عن طريق اجراء الاقتراع بين الرجال غير المتزوجين أو الأرامل الذين لا يحملون

(١) أصبح فى فرنسا فى القرن السابع عشر نوعان من النبلاء: نبلاء السيف Noblesse d'Epeé وهم الذين حصلوا على اللقب بالوراثة ونبلاء «الروب» أو الرداء Noblesse de Robe وهم الذين حصلوا عليه بالمال. وكلمة «الروب» رمز إلى روب القضاء والمحاماة. (المترجم)

لقب النبالة أو ليسوا من رجال الكنيسه أو تقرر اعفاؤهم لأسباب أخرى كأن يكونوا من المدرسين أو من حراس الصيد أو حراس الغابات التي يمتلكها أمراء الاقطاع أو من خدم رجال الكنيسة أو النبلاء وفق شروط معينة الخ . . . وعلى هذا النحو تكونت طبقة جديدة استمتعت بكل حقوق وامتيازات الطبقة القديمة من النبلاء وبررت ذلك بما تؤديه من خدمات تختلف في طبيعتها عن الخدمات التي كان يؤديها النبلاء وبررت ذلك بما تؤديه من خدمات تختلف فى طبيعتها عن الخدمات التي يؤديها النبلاء قديما وأصبحت البرجوازية تتساوى مع النبلاء وأخذت فى الوقت نفسه تحتل مكانها .

ولم يكن ارتفاع شأن البرجوازية وليد يوم وليلة بل أنه كان نتيجة لتطور استمر مدة طويلة وبدأت ترتسم خطوطه إبان حكم اسرة « الكابسيين Le Capétiens » ، إذ يقول لنا « لوشير Luchaire » أن الطبقة البرجوازية منذ عهد « هيو كابت Hugues Capet » حتى عهد فيليب الأول لم تكن قد بلغت بعد من القوة درجة تشعر الملك بحاجته لطلب معونتها . ولكن اهميتها الاجتماعية أخذت فى الصعود فى خلال القرن الثانى عشر. ويقرر المؤرخون أن البرجوازية كانت ممثلة أثناء حكم لويس السابع فى الجمعيات السياسية والمجالس الوطنية وعلى الأخص فى المجلس الخاص للملك . ثم ظهر أثرها أكثر وضوحا إبان حكم فيليب

أوجست والقديس لويس وتمت آخر حلقات التطور الذى بدأ فى القرون السابقة عند اجتماع الجمعية الوطنية التى عقدها « فيليب لى بل »، إذ أصبحت البرجوازية، التى تدعى للتمثيل فى المجلس ولاسداء المعونة المالية، والنصح تمثل المرتبة أو الطبقة الثالثة فى الدولة[1] .

وفى خلال حرب المائة سنة أخذت البرجوازية تلعب فى النشاط الديبلوماسى دوراً كان من قبل مقصوراً على كرادلة الكنيسة . وظهرت أسماء بورجوازيين مثل « بير أودون Pierre Odon » «وبونس أمات Pons Amat وبرناردفور Bernard Faure كانوا حلقة الاتصال بين معسكرى الأعداء من الانجليز والفرنسيين . وفى الوقت نفسه أخذ الملوك يفسحون للبرجوازيين مكانا يزداد على الدوام اتساعا فى مجالسهم . وحين عهد شارل الخامس بالوصاية على وريثه القاصر إلى أخيه الثالث دوق بورجونيا وإلى صهره دوق بوربون وذلك ليحول بين دوق انجو الوصى الشرعى وبين الاستئثار بالسلطة، رأى أن يدخل فى مجلس الوصاية عدد من البرجوازيين أمثال نيكولا ديبوا وجان باستورل وغيرهم . واتخذ دوق بورجونيا من « فيليب الجسور Philippe le Hardi » وزيراً أول وهو من أفراد الشعب . وأحاط

(١) Le tiers ordre de l'Etat

شارل السابع نفسه — وهو الملقب بذى النعم Le Bien Servi بعدد من الوزراء من الشعب كما أدخل فى مجلسه أفراداً من الشعب منهم : جاك كور Coeur والإخوة بورو Bureau ، وجان جوفنل Jouvenel وجيوم كوزينو Cousinot الخ ... وحذا لويس الحادى عشر حذوه فلم يأنف من أن يقرب إليه صغار الناس مثل حلاقه أوليفييه الغزال Olivier le Daim الذى شنق فى عهد شارل الثامن . وفى القرن السادس عشر ارتقى بيير جانان الذى عرف باسم الرئيس جانان Jeannin بجهوده الخاصة إلى المناصب الرئيسة فى القضاء . وفى القرن السابع عشر أصبح نيقولا فوكيه Fouquet ناظرا للمالية وميشيل لوتلييه Le Tellier وزيراً للحربية وكولبير المشهور Colbert مراقبا عاما للمالية. وانتهى صعود البورجوازية الذى أخذ يزداد وضوحا يوما بعد يوم إلى «ذلك العهد الطويل لحكم البورجوازية الخسيسة» على حد تعبير سان سيمون الذى كان يشكو من تلك الحال كما انتهى إلى « طغيان طبقة الشعب » حسب تعبير دارجنسون D'Argenson .

وتدين البورجوازية بهذا الارتقاء، الذى أوغر صدور النبلاء القدامى ؛ إلى ثرائها المتزايد وزيادة حظها من الثقافة . فقد تميز آخر القرن الثامن عشر بازدياد الثروة إلى حد كبير . وجمع أصحاب السفن وتجار الأقمشة وتجار المواد الغذائية وتجار الكماليات

والجوهرات ثروات ضخمة . وقد ظهرت آثار هذا الثراء والرخاء العام فيما حفلت به الموائد من فاخر الأطعمة، وما كان يلبسه القوم من فاخر الملبس والزينة ، واقتناء الأثاث الثمين، وسكنى القصور الشامخة ، والاهتمام ببناء الكنائس وتجميلها بأبدع النقوش ؛ وكان التجار والمضاربون والمتعهدون على رأس من استمتعوا بهذه المتع. وقد كان من شأن الأهمية الاجتماعية التى حظت بها هذه الطبقة نتيجة لثرائها أن أعطت لآرائها وزنا يعتد به . كما أن ثراء الدولة الذى كان نتيجة لنشاطها ، قد أكسبها ثقة الهيئة الحاكمة واحترامها. ولما كانت أنواع النشاط التى اضطلع بها أفراد هذه الطبقة تتطلب قسطا من المعرفة العلمية والثقافة فقد سهل لهم الثراء الحصول على بغيتهم . وأصبح يخرج من بين صفوفهم القضاة والمشرعون وموظفو الإدارة الملكية ومن بعدهم مراقبو شئون الدولة والوزراء : وقد أخذت هذه الطبقة الجديدة تستمد نفوذها من جلال الخدمات التى تؤديها للدولة كما كان يحدث قديما للنبلاء .

فلم يكن تطور البورجوازية إذن يشذ عن القاعدة العامة التى تقضى بأن يكون ما تتمتع به طبقة من الطبقات من سلطة ونفوذ يتناسب مع ما تؤديه من خدمات ولابد أن يكون للثراء والمعرفة دور اجتماعى فى إدارة شئون الدولة . وقد تفاوتت قيمة هذا الدور بحسب الظروف والأحوال لأن المال والعلم قد يستخدمان فى الخير كما يستخدمان فى الشر: وحين تنعدم الخدمات التى يؤديها

القوم إلى المجتمع تصبح الثروة والمعرفة وبالا على أصحابها ، فبدلا من أن تسهم فى رقيهم وعظمتهم تهبط بهم إلى الحضيض . وليس أدل على ذلك من تدهور نظم الكنيسة والرهبنة فى كثير من عصور التاريخ : فقد كان الرهبان الأوائل يسهمون فى إصلاح الأراضى وزراعتها مع الفلاحين ويجففون المستنقعات ويعيشون من نتاج عملهم الزراعى أو الصناعى ، وكانوا فوق ذلك يقومون بواجب الضيافة نحو المسافرين فى وقت عزت فيه الفنادق ، وكانت فيه النزل لا يؤمن جانبها لما تحويه من الأشرار وقطاع الطرق ، وكانوا كذلك يقومون بواجب الإحسان إلى من يستحقون ، ويحاولون إيجاد عمل للعاطلين من أفراد الشعب بعد أن يزودوهم بالإيمان والعلم . فلما انعدمت هذه الخدمات وحلت محلها الأديرة التى أتخمها الثراء من أموال الوصايا وهبات المحسنين وأصبح الرهبان فى عزلة لا يهتمون بتعاليم الدين ، ونشرها بقدر ما يهتمون بجلب المنافع لأنفسهم والاغراق فى نعيم الحياة الزائف : حينئذ تلاشى نفوذهم وسلطتهم التى كانا سبباً فى جلب الثراء لهم وانتهز الأمراء الذين استهوتهم حركة « الاصلاح الدينى La Réforme » فرصة انحسار الثقة عنهم فانتزعوا منهم أملاكهم وشتتوا فرقهم .

الفصل الرابع

الطبقات والحياة السياسية

عاب « بيرك Burke » فى كتابه « خواطر عن الثورة الفرنسية »[1] على الدستور الذى أنشأه رجال ثورة سنة ١٧٨٩ أنه نظم العلاقات بين الناس ، دون أن يشير أية أشارة إلى مايجب أن تكون عليه أحوالهم الخلقية أو السياسية أو يهتم بوضع نصوص تتصل بأعمالهم وأوجه نشاطهم وعواطفهم ومصالحهم ، وعلى العكس من ذلك فان القدماء — كما يقول — قد اهتموا أيما اهتمام بتمييز المواطنين فى طبقات . وهذا فى الواقع هو الفارق الأساسى بين وجهة نظر العصور القديمة ووجهة نظر العصور الحديثة فيما يتعلق بالطبقات . فالطبقات حقائق قائمة فى كل مكان وزمان وغالبا ما تحكم الهيئات الحاكمة فى صالح بعضها ضد البعض الآخر على الرغم من أن القانون فى العصور الحديثة لايعترف بالفواصل بين الطبقات . ولكن الأمر كان يختلف عن ذلك تماماً فى العصور القديمة فى اليونان وفى روما . ويمكن القول عن العصر الوسيط الذى كان يعترف «بالمراتب les Ordres» لا بالطبقات أنه ، كان مرحلة انتقال بين النظرة القديمة والنظرة الحديثة .

---

(١) Réflexions sur la Révolution française

اعتراف القانون بالتمييز بين الطبقات :

عرف العالم القديم نظام الرق الذى ألغاه وحرمه العالم الحديث وهذه الظاهرة وحدها تكفى لاقناعنا بأن مدلول الطبقات أصبح فى نظرنا يختلف عما كان عليه عند القدماء . فقد كان المجتمع اليونانى أو الرومانى — إذا قصرنا الكلام على هذين المجتمعين — ينقسم إلى قسمين متميزين . المواطنون الأحرار فى جانب والعبيد فى جانب آخر . ولما كان هذا الوضع غير العادل مقبولا لدى الجميع فان مظاهر عدم المساواة الأخرى كانت بطبيعة الحال أقل اثارة لضمائرهم .

ثم ظهرت إلى جانب هـذه التفرقة الأساسية تفرقة أخرى مصدرها خصوصية الدين وضيق حيز المدينة . فى العصور القديمة كان لـكل مدينة آلهتها وقد بلغ تعصب كل مدينة لآلهتها حدا جعل سقراط يحكم على نفسه بتجرع السم لأنه نشر بين الناس تعاليم شككتهم فى آلهتهم . ولم يكن يسمح للأجنبى المستوطن ولا لذريته حتى ولو ولدوا على أرض المدينة بأن يشتركوا مع المواطنين الآخرين فى أداء شعائر الدين مادام آباؤهم لا يحملون لقب المواطن . أما فى العصور الوسطى فلم يعد هناك شىء من ذلك بل أن الأجنبى — متى كان مسيحياً — كان يسمح له بأن يصبح قسيسا أو أستاذا وكان البابا يعين رعاة الأسقفيات من الانجليز أو الفرنسيين أو الطليان دون تفرقة بينهم ، وفى أى بلد من البلدان . وجلس على

كرسى الأستاذية فى باريس فيلسوفان أحدهما ألمانى وهو «ألبير الأكبر Albert le grand» والآخر إيطالى وهو «توماس الأكوينى Thomas d'Aquin».

وكان أثر الدين الخاص بالمدينة أكثر وضوحا فى روما إذ يقول لنا فوستيل دى كولانج Fustel de Coulanges أن التفرقة بين العامة Les plébéiens والاشراف les patricians كانت تقوم فى الأصل على أن العامة لم يكن لهم أسلاف يقومون باداء الشعائر لآلهة المدينة. أما فى أثينا فيبدو أن فوارق الدين لم تصل إلى هذا الحد بل كانت الفوارق أكثر ارتباطا بالجنسية وكان للأجانب فيها les métèques وضع خاص؛ وربما كان ذلك راجعا إلى أن أثينا كانت تمارس التجارة أكثر من الزراعة على حين أن روما كانت تعيش فى بادىء أمرها بصفة جوهرية على الزراعة.

وإذ تركنا العبيد والأجانب جانبا نجد أن أثينا قد عرفت تقسيم المواطنين إلى طبقات متميزة. فنى مقاطعة أتيكا Attique [١] كان أبناء الأسر العريقة وحدهم أصحاب الحق فى ممارسة النشاط الإدارى فى الدولة وكذلك كانت الحال فى اسبارطة. ولم تمنع النظم الديموقراطية من تقسيم المواطنين فى كل مكان إلى طبقات متعددة

---

(١) وهى المقاطعة التى فى شمال شبه جزيرة البلوبونيز وعاصمتها أثينا.

بحسب الثروة . فكان فى أثينا أربع طبقات أقرها سولون Solon بعد اجراء احصاء للسكان. تشمل الأولى من يملكون دخل ٥٠٠ مديمنوس[1] من القمح أو من المحاصيل الأخرى أو من يصل دخلهم إلى ٥٠٠ دراخمة وكان يطلق عليهم لهذا السبب اسم «أصحاب الخمسمائة مديمنوس Les pentacosiommédines . والثانية تشمل من يملكون دخل ٣٠٠ مديمنوس أو ٣٠٠ دراخمة ، ولما كان هؤلاء يخدمون فى سلاح الفرسان فقد أطلق عليهم اسم الفرسان Les chevaliers . وكانت الطبقه الثالثة تشمل من يستطيعون إطعام زوج من الماشية وقد اطلق عليهم لذلك اسم «أصحاب الزوج Les Zeugites » وكانوا يكونون معظم كتائب المشاة المسلحة تسليحا ثقيلا . أما الطبقة الرابعة فكانت تشمل الفقراء والمعدمين Les Thétes فى مقاطعة أتيكا ، وكان هؤلاء لا يدفعون أية ضريبة كما لم يكن لهم حق الانتخاب وكانوا يستخدمون عادة فى الأسطول كمجدفين . وقد كان أفراد الطبقتين الأوليين وحدهم هم الذين يستطيعون الوصول إلى مناصب القضاء ، أما رتبة رئيس القضاة L.Archontat فلم يكن يصل اليها إلا أفراد الطبقة الأولى دون سواهم . على أن تقدم الديمقراطية أدى مع الزمن إلى تعديل حقوق والتزامات هذه الطبقات ولكن التقسيم الطبقى فى ذاته ظل قائما .

---

(١) وحدة للمكاييل تساوى مايقرب من ٥٢ لترا . (المترجم)

أما فى روما فقد كان التميز قائماً بين المواطنين ذوى الحقوق الكاملة وبين المواطنين ذوى الحقوق غير الكاملة . وكان الأولون يتمتعون بجميع الحقوق المدنية (Cives optimo jure) كحق الزواج المطلق وحق الامتلاك (Connubium et Commercium) ، وبجميع الحقوق السياسية وأهمها حق الانتخاب والترشيح وحق الحصول على ألقاب الشرف (Jus suffragii et jus honorum) . أما المواطنون ذوى الحقوق غير الكاملة فقد كانوا ينقسمون إلى طائفتين: أصحاب الحقوق المحدودة Cives minuto الذين كانوا يتمتعون بحق الملكية دون أن يكون لهم الحق فى الزواج من المواطنين ذوى الحقوق الكاملة وكان لهم حق التصويت دون أن يكون لهم حق ترشيح أنفسهم للانتخاب ولم يكن فى استطاعتهم الوصول إلى مناصب القضاء أو مناصب رجال الدين . أما الطائفة الثانية فكانت تشمل المواطنين الذين يتمتعون بحقوقهم المدنية كاملة دون أن تكون لهم حقوق سياسية Cives sine suffragio .

وكما قلنا من قبل تطورت الطبقات فى العصور الوسطى وإبان النظام الملكى السابق للثورة الفرنسية إلى « مراتب Ordres » فأصبحت هناك مرتبة رجال الكنيسة le clergé ومرتبة النبلاء La Noblesse ومرتبة أفراد الشعب Les tiers-Etat . وكان لكل مرتبة وضعها السياسى والمدنى والضرائبى المتميز عن وضع المراتب الأخرى .

فكان لفئة النبلاء قانونها المدنى الخاص فيما يتعلق بنظام الوراثة : إذ بينما كانت الممتلكات الشعبية — سواء أكانت ملكا لأفراد من الشعب أو من النبلاء تتوزع بالتساوى بين جميع أبناء المالك كان هناك بالنسبة لأملاك النبلاء ما يسمى بحق الابن الأكبر droit d'aînesse ، وهذا الحق يميزه عن اخوته الصغار وعن اخواته البنات . ويؤول اليه بمقتضى هذا الحق شعار الأسرة وعلاماتها المميزة وألقابها واللوحات التى تمثل الأسلاف . كما كانت هناك امتيازات أخرى يكتسبها الابن الأكبر وتختلف من إقليم إلى آخر . فكان من العادات المتبعة فى باريس أن يحصل على ثلثى الأراضى النبيلة وعلى القصر الرئيسى فى اقطاعية يختارها بنفسه . أما الأخوة الصغار والبنات فكانوا يقتسمون باقى التركة فيما بينهم بالتساوى .

وكان للنبلاء فوق ذلك حقوق تشريفية : منها تقدمهم على ممثلى الشعب فى اجتماعات الجمعية الوطنية وختم شاراتهم المميزة Armoiries بخاتم التاج بالنسبة لمن يحملون لقب « دوق » أو « كونت » أو « ماركيز » أو « بارون » وبخاتم الخوذة بالنسبة للنبلاء غير ذوى الألقاب كما كانت لهم كذلك حقوق فيما يتصل بأراضى الصيد وأماكن تربية الأرانب البرية والحمام وحق وضع وردة الرياح فوق قصورهم ومنازلهم .

وتمتع النبلاء كذلك بامتيازات ضرائبية منها اعفاؤهم من الضريبة العقارية ومايتصل بها واعفاؤهم من أعمال السخرة بالنسبة لأشخاصهم واعفاؤهم من ضريبة الجملة على المحاصيل التى تنتجها اقطاعياتهم . وفيما عدا ذلك كانوا يسهمون فى الأعباء الضرائبية الأخرى كما كانوا يكلفون بأداء خدمات عسكرية كانت تبرر اعفاءهم من الضريبة العقارية إذ كانوا يدفعون بدلا منها ضريبة الدم . وكان للنبلاء كذلك حق جباية بعض الأموال من السكان الذين يقطنون فى أراضيهم .

ولم يكن نظام العقوبات كذلك واحدا بالنسبة للنبلاء وأفراد الشعب . فكان الجلد بالسوط لايطبق على النبلاء وكان حكم الإعدام ينفذ فيهم بالمقصلة لابالشنق كما كان يحدث مع السوقة وذلك فيما عدا بعض « الحالات المزرية » كالخيانة والسرقة والحنث بالعهد والتزوير وهى حالات كانت تؤدى بحكم القانون إلى فقدان لقب النبالة . وفى عهد وصاية دوق أورليان Duc d'Orléans أى فى الوقت الذى أصدر فيه رجل الاقتصاد «لاس Law» [1] العملة الورقية اتهم أحد النبلاء وهو « الكونت دى هورن Horn» بأنه قتل أحد السماسرة فحكم عليه بتقطيع أوصاله حياً على عجلة

---

(١) اصطلح على نطق (لاس) وهو اسم الرجل الذى أحدث انقلابا فى عالم المال بخروجه على قاعدة الذهب وتنفيذه لفكرته التى كانت ثورية فى هذا العهد وهى إصدار العملة الورقية والتعامل بها بدلا من العملة الذهبية (المترجم)

الموت وذلك بالرغم من أصله النبيل . ولكن الحالات التى نفذت فيها مثل هذه العقوبات على النبلاء كانت نادرة .

وفى مقابل تخفيف بعض العقوبات كان النبلاء يدفعون فى حالة الغرامة ٦٠ جنيها حيث كان أفراد الشعب لايدفعون إلا ٦٠ صولدياً [١] .

ويذكرنا اختلاف العقوبات هذا بما كان عند الرومان فلم يكن يوقع على أعضاء مجلس الشيوخ (السناتو) إلا عقوبات النفى ومصادرة الأموال وذلك بالنسبة للجرائم التى كان يحكم فيها على أفراد الشعب بالإعدام. وفى مقابل ذلك كانت الغرامة التى توقع على عضو السناتو أعلى بكثير من الغرامة التى توقع على فردمن الشعب. وتأتى بعد امتيازات النبلاء امتيازات رجال الدين . وهؤلاء كان لهم الحق فى الاستيلاء على عشر المحاصيل الزراعية من الفلاحين كل فى دائرة اختصاصه وقد سميت هذه الضريبة بضريبة العشر La dime . وكان رجال الكنيسة يتمتعون بأنواع من الحصانة كما كانوا يتمتعون ببعض الاختصاصات القضائية وكانت هناك محاكم كنسية تختص بالفصل فى المسائل المتصلة بالزواج وتنفيذ الوصايا وبذلك كان القانون الكنسى droit canon يتعدى على

---

(٢) كان الصولدى Sol فى ذلك العهد يساوى ١/٢٠ من الجنيه ، أى أن الغرامة التى كان يدفعها النبيل تعادل ٢٠ مرة ما كان يدفعه أفراد الشعب (المترجم)

أحد الاختصاصات التى تدخل اليوم فى نطاق القانون المدنى droit Civil [1] . وفى نظير هذه الامتيازات كان رجال الكنيسة يقومون بواجبات هامة منها مساعدة الفقراء ورعايتهم والقيام بمهمة التعليم الخ . . .

وأخيرا تأتى الحقوق الممنوحة لأفراد الشعب : فهؤلاء كان لهم الحق فى الإثراء عن طريق التجارة وهو حق حرم على النبلاء كما أن الاختيار لوظائف الإدارة والوظائف القضائية العامة كان يتم من بين صفوف الشعب . وبذلك فتح أمام طبقات الشعب مجالا للنشاط لم يكن النبلاء يدخلونه إلا إذا غامروا بضياع ألقابهم . فقد كانت صفة النبالة تسقط عن صاحبها إذا مارس التجارة . أو مارس حرفة يدوية باستثناء حرفة الأدوات الزجاجية ؛ كما كان النبيل يفقد لقبه إذ قبل العمل فى بعض الوظائف كوظيفة الكاتب أو الموثق أو رجل البوليس باستثناء وظائف موثق غرفة الحسابات وكتاب المجالس العليا . كما كان يفقد لقبه أيضا إذا استغل مزرعة للغير فيما عدا استغلال أراضى الأمراء أو الأميرات أو الاستمرار فى ممارسة عقد موروث .

---

(١) يذكرنا ذلك بما كان قائما فى مصر منذ وقت قريب من وجود المحاكم الشرعية واختصاصها بنظر قضايا الأحوال الشخصية . ولاشك أن الغاء هذا الازدواج إنما هو الغاء لنظام عتيق ولد فى عصور الجهل . وكما قضت الثورة الفرنسية على هذا النظام فى أوروبا قضت ثورتنا المصرية عليه فى مصر . (المترجم)

يتضح مما تقدم أن المجتمع إذا كان قد أقر بعض وجوه عدم المساواة فى الحقوق فقد كان غرضه الأساسى من ذلك مراعاة الفروق الطبيعية بين الناس واستغلالها إلى أقصى حد ممكن . وإذا كانت هذه النظرة قد اعتبرت هدفا مثاليا إلا أن تطبيقها كان يعرضها غالبا للانحراف بفعل الأهواء الانسانية ومع ذلك فقد استطاع المشرعون دائما أن يسترشدوا بما اصطلح عليه المجتمع من ايجاد فوارق بين الناس . وقد ظهر أن هناك نوعين من الوسائل يتعين الأخذ بها لحفظ كيان المدينة والابقاء على الصفات المميزة للشعوب أو الفضائل اللازمة لسلامة الدولة وهذه الوسائل هى « الامتيازات » و« المحرمات ». من أمثال ذلك أنه كان يتحتم على النبلاء فى العصور الوسطى — من حيث المبدأ — أن يزودوا أنفسهم بالسلاح والعتاد على نفقتهم الخاصة وأن يخرجوا للدفاع عن الوطن ولهذا السبب كانوا يعفون من ضريبة الرأس . إذ كانوا يسددون دينهم للوطن بتعريض حياتهم للخطر فى الحروب وبانفاق أموالهم فى خدمة الدولة . أما عن تحريم اشتغالهم بالتجارة والاثراء عن طريقها فقد كان المبرر له تعويدهم روح النزاهة والابتعاد عن الأغراض الشخصية وهذا التحريم ذاته يبرر اعفاءهم من بعض الضرائب إذ كان هذا الاعفاء ييسر لهم الاحتفاظ بمكانتهم الاجتماعية والابقاء على ثروة كانوا ينفقونها عندما يدق ناقوس الخطر فى الاستعداد للحرب وخدمة الدولة . ونستطيع أن نقع

على مبررات مشابهة لمبدأ «العزوبة» الذى فرض على القسس ورجال الكنيسة .

نخرج من هذا المبدأ المثالى بنتيجة هامة وهى أن الحقوق والامتيازات التى تحصل عليها طبقة من الطبقات يجب أن تبررها فضائل شخصية وخدمات تؤدى للدولة . فالصفات الممتازة التى يتحلى بها أفراد الطبقة ويستخدمونها لصالح الوطن والخدمات التى يقدمونها له فى اللحظات التاريخية الحرجة من شأنها أن تزيد من نفوذ هذه الطبقة أو تجعلها ذات نفوذ لم تكن تتمتع به من قبل . ويترتب على ذلك منحها بعض الحقوق ومظاهر السلطة التى كانت تحرم عليها حتى ذلك الحين . على هذا النحو كان انتصار الاغريق فى موقعة سلامين Salamine [1] التى أسهمت فيه الطبقات الشعبية الدنيا وهى الطبقات التى كان يجند منها عمال التجديف فى الأسطول ــ كان هذا الانتصار سبباً فى ازدياد أهمية هذه الطبقات فى الحياة السياسية وحصولها على حق الانتخاب الذى كانت محرومة منه من قبل . ويقول لنا أرسطو انه عندما انتصر شعب سيراكيوز Syracuse على الأثينيين كان من نتيجة ذلك إحلال النظام الديموقراطى محل النظام الجمهورى المطلق .

---

(١) الموقعة البحرية التى هزمت فيها أثينا أسطول الفرس فى عام ٤٨٠ ق.م
(المترجم)

وبعد موقعة سيزيك Cyzique [1] التى انتصر فيها « السبياد Alcibiade » على أهل البلوبونيز عادت أثينا إلى دستورها القديم الذى نبذته بعد هزيمة حملة صقلية. ويلخص كورتيوس Curtius [2] حق الشعب فى جنى ثمرات انتصاراته بقوله «إن النظام الذى يحرم المواطنين الفقراء من الاستمتاع بكامل حقوقهم المدنية ليبدوا فى الحقيقة ظلما فاحشا فى الوقت الذى يقدم فيه البحارة أرواحهم ويحاربون دفاعا عن الوطن فى شجاعة لم يسبق لها نظير » وقد تمت مثل هذه الانتصارات الشعبية بعد موقعة بلاتيه Platée [3] .

النزعات السياسية للطبقات :

مهما كانت درجة التنظيم السياسى للطبقات وسواء أكانت هذه منظمة أو غير منظمة من الناحية السياسية فان ذلك لا يمنع أن تكون لها أنواع من الطموح السياسى والاجتماعى .

---

(١) سيزيك Cyzique بلد قديم فى آسيا الصغرى على بحر مرمرة (المترجم)

(٢) كورتيوس . هناك شخصيتان يعبر عنهما هذا الاسم الأولى اسطورية فى روما القديمة . فقد سخر كورتيوس من العرافة والمنجمين حين أفتوا بأن الحفرة التى أحدثها أحد الزلازل فى مكان الفورم لا تلتئم إلا إذا وضع فيها أغنى كنوز روما . ولما كان كورتيوس يؤمن بأن قوة روما تكمن فى سلاحها وشجاعتها فقد اندفع بحصانة نحو الحفرة فالتأمت . أما الشخصية الثانية فهى مؤرخ المانى (١٨١٤ — ١٨٩٦) كتب مؤلفا قيما عن تاريخ اليونان ، ويبدو أن مؤلف الكتاب يشير إلى هذا الأخير . (المترجم)

(٣) (بلاتيه) موقعة هزم فيها بوزانياس واريتيد جيوش الفرس عام ٤٧٩ ق.م (المترجم)

وهذا ما يستخلص من ملاحظة الحركات الدينية الكبرى . فالمسيحية التى بشر بها القديس بولس فى المعابد التى انتشرت فى حوض البحر الأبيض المتوسط والتى كانت مصطبغة بالصبغة اليونانية قد انتشرت بين الطبقات الدنيا من الشعب بين العبيد وصغار الناس قبل أن تستجيب لها الدوائر العليا فى المجتمع . وكذلك اصطبغت البروتستنتية فى فرنسا بالصبغة الشعبية وانتشرت بين الصناع وذوى الحال المتواضعة مما جعل « باكل Buckle » يكتب أن الكاثوليكية كانت دين الأغنياء على حين كانت البروتستانتية دين الفقراء . وقد برر ذلك بأن الكاثوليكية بما انطوت عليه من مبدأ التدرج Hiérarchie قد وجدت صدرا رحيبا بين الطبقات الأرستقراطية . أما البروتستانتيه فإنها بما كانت تدعو إليه من التفكير الحر فى نصوص الانجيل وتأويلها بحسب الاقتناع الشخصى قد ارتبطت بنمو الروح الديمقراطية التى تدعو إلى المساواة . وقد دعم الكاتب فكرته هذه بما بينه من تقدم مذهب جانسنيوس وهو يقترب كثيراً من مذهب كالفن البروتستانتى[1] قبيل الثورة الفرنسية وانحلال مذهب الجيزويت خلال حكم لويس الخامس عشر وقد كانت الحال على عكس هذا تماما خلال حكم

---

(١) مذهب جانسنيوس Le Jansénisme هو المذهب الذى ناهض مذهب الجيزويت فى القرن السابع عشر وكان من أنصاره الفيلسوف المشهور بسكال — وللالمام بتاريخ هذا المذهب اقرأ كتاب بسكال للدكتور نجيب بلدى (سلسلة نوابغ الفكر الغربي — دار المعارف) (المترجم)

لويس الرابع عشر حيث كان أنصار الجيزويت أقوياء بينما كان أنصار جانسنيوس مستضعفين مستعبدين .

ولم يختلف الأمر عن ذلك فيما يتعلق بالاتجاهات والآراء السياسية والاجتماعية فقد لاحظ شيشرون روح المحافظة عند أفراد البورجوازية الصغيرة (أو الطبقة دون المتوسطة) . وقبل ذلك بثلاثة قرون تقريبا لاحظ أرسطو أن الطبقات الوسطى عامل هام من عوامل الاستقرار فى الدولة . ولاحظ هيروديان تلك الملاحظة نفسها بعد ذلك بثلاثة قرون .

ولما كانت الآراء السياسية كالمعتقدات الدينية ذات صلة بحاجات الناس ورغباتهم وعواطفهم وأهوائهم كما أنها تتوقف إلى حد كبير على الحالة الاجتماعية والثقافة ونوع الحياة ومستواها لذلك نجدها تختلف بقدر قليل أو كثير من طبقة إلى أخرى . وقد لاحظ أرسطو أن عيب الطبقات الغنية هو « الزهو » على حين أن عيب الطبقات الفقيرة هو « الحسد » أو الانحراف أو الجهل . أما الطبقة الوسطى فإنها تمتاز بمرونتها وخضوعها لأوامر العقل . والحق أنه يصعب الاستماع إلى صوت العقل عندما يكون المرء متمتعا بامتيازات غير عادية كالامتيازات التى يضيفها شرف المولد أو الثراء أو عندما يكون مصاباً بشعور بالغ بالنقص ينجم عن الفقر أو الجهل . ومن ناحية أخرى فإن الطبقات العليا أو

المستنيرة تميل عادة إلى حب النظام ويدعم هذا الميل عندها رغبتها في الاحتفاظ بالامتيازات التي تنعم بها كما أنها تحسن اختيار الفرص والتصرف المعقول وذلك لفهمها الصحيح لظروف الحياة الاجتماعية وإلمامها الواسع الأكيد بالظروف التي تعيش فيها. أما الطبقات الدنيا فانها على العكس من ذلك كما لاحظ «جيزو Guizot»؛ إذ غالبا ما تحركها الرغبة الجامحة في الإصلاح وإحداث الانقلابات الاجتماعية. وهذه الرغبة مردها إلى خليط من العواطف المتسلطة والأهواء الخبيثة التي تغذيها آراء غامضة وأفكار خيالية غير منسقة لكنها قوية عنيفة لأنها تستجيب لحاجات عاتية وتعد بآمال عريضة. وربما كانت معرفة هذه النزعات والميول الخلقية التي تتصف بها الطبقات الدنيا هي التي دفعت بالحكومات زمنا طويلا إلى انكار حق الاقتراع أو التصويت على من يدفعون حداً معينا من الضرائب كما أبعدت الطبقات الشعبية كذلك عن وظائف القضاء. وهكذا نرى أن طبقة الكادحين Prolétariens قد ظلت خلال قرون عدة يحكم عليها بأنها طبقة خطرة لأن «الوحشية والعنف ديدنها وخلقها» كما يقول «فولابل Vaulabelle» في كتابه «تاريخ فترتي رجوع الملكية Histoire des deux Restaurations» ولأنها دائما تخلق المتاعب والشغب. وأيد هذه النظرة ماحدث من إدخال الفقراء والكادحين في الجيش الروماني على أثر إصلاح «ماريوس Marius» إذ نتج تدهور نظام الجيش فقد حدثت

عدة تمردات فى صفوف المحاربين وقتل أحد القواد بيد جنوده الخ . . . وحين تحولت الجمهورية الأرستقراطية إلى جمهورية ديمقراطية على أثر موت الأخوين « جراكوس Gracchus »[١] كان ذلك بالنسبة لروما فاتحة عهد من الاضطراب والخلافات والحروب الداخلية التى تسببت فى النهـــاية فى قيام دكتاتورية « سيلا Sylla » .

ويقول لنا ارسطو فى مؤلفه « دستور أثينا » إن مقاطعة « أتيكا » فى القرن الرابع ق . م أبان عصر « صولون Solon » كانت تضم ثلاث جماعات من الشعب تكون ثلاثة أحزاب سياسية .

١ ــ البديون Les Pédiens [٢] أو سكان السهول وهم جماعة كبار الملاك ويكونون الحزب الأرستقراطى المحافظ .

٢ ــ الدياكريون Les diacriens [٣] وهم جماعة صغار الملاك من سكان المناطق الجبلية وعمال المرتزقة ويكونون الحزب الثورى .

---

(١) من أشهر أعضاء السناتو وخطباء روما الاخوان « تيبريوس » و « كايوس » وقد قتل الأول سنة ١٣٣ والثانى فى سنه ١٢١ ق.م بسبب مقاومتهما لجشع الطبقة الارستقراطية التى أرادت الاستيلاء على معظم الأراضى التى انتزعت من العدو . (المترجم)

(٢) Pedios باليونانية معناها السهول . (المترجم)

(٣) كلمة مكونة من مقطعين dia بمعنى قمة و acros بمعنى الجبال (المترجم)

٣ ــ البارالبون Paraliens[1] وهم سكان السواحل من البحارة والعمال الذين يعيشون من التجارة البحرية وكانت تجمعهم صفات تتطلبها طبيعة عملهم وهي روح الاقدام التي لا تتراجع إزاء التغيير والتجديد ، والاتجاه العملي والميل إلى التعاقد وروح التضامن التي توحد بين مصلحة كل فرد ومصلحة المجموع . وهذه الصفات جعلت من هذه المجموعة حزباً معتدلا يستطيع أن يفهم وأن يتطلع إلى التجديدات النافعة التي لا تتجاوز الحدود المعقولة كما تحددها حكمة رجال الأعمال واتزانهم .

التصارع والنزاع بين الطبقات :

إذا كانت الطبقات وليدة تقسيم العمل الاجتماعي إلى حد كبير كان من الطبيعي أن تتعاون فيما بينها في هدوء وسلام . ولكن اختلاف طرق تفكيرها وشعورها لاختلاف وسائل معيشتها يؤدي في كثير من الأحيان إلى تعارض الآراء فيما بينها وإلى تضارب مصالحها مما قد ينجم عنه قيام بعضها في وجه البعض الآخر كما يحدث في أوقات الأزمات والثورات .

ففي روما مثلا كان الفقراء يعيشون في حالة غبن وضعة بالقياس إلى الأغنياء الذين كانوا في أوقات الحروب يجدون تحت

---

(١) كلمة مكونة من مقطعين para بمعنى حول و alos بمعنى جزيرة (المترجم)

أيديهم من يتولى زراعة الأرض وفلاحتها من العبيد على حين كان الفقراء من أفراد الشعب يتحتم عليهم أن يتركوا حقولهم جرداء حين يدعون لحمل السلاح . وكان الغنى فى أيام المجاعات يستطيع شراء ما يلزمه من الحاجيات من البلاد الأجنبية أما الفقير فكان لا يستطيع أن يرد نفس المورد وحينئذ يقع تحت رحمة الغنى ويظل يستدين منه حتى يبيع له فى النهاية نفسه ويصبح مولاه أو عبده .

وكانت فرنسا فى ظل نظام الملكية القديم يسود فيها هذا النوع من التصارع والنزاع بين المدينة والقرية وبين طبقة البورجوازية وطبقة الشعب . فكانت الضريبة العقارية تفرض بوجه خاص على الفلاحين ولذلك كان أفراد الشعب الأغنياء يجدون من صالحهم تأجير أراضيهم وينزحون هم للعيش فى المدينة وبذا كانوا يتجنبون دفع هذه الضريبة ويتجنبون على الأخص جمعها من الفلاحين . ويقول تورجو أن جمع هذه الضريبة كان يحول السوقة من ملاك الريف إلى بورجوازيين . ولما كانت هناك من ناحية أخرى وظائف كثيرة تعد بالآلاف تضمن لأصحابها الإعفاء من الخدمة فى الحرس الوطنى أو من دفع الضريبة العقارية فقد أخذ البورجوازيون يشترون هذه الوظائف مما أدى إلى مضاعفة العبء على كواهل الفلاحين وزيادة ما يؤدونه من خدمات عسكرية وما يدفعونه من ضرائب مالية . ولهذه الأسباب كان

سكان القرى يكرهون سكان المدن أشد الكراهية وكان هؤلاء لا يتورعون عن التضحية بسكان الريف فى سبيل مصلحتهم وخصوصاً فيما يتعلق بتسوية الضريبة الخاصة بدخول المحاصيل إلى المدينة إذ كانوا يتهربون منها ويتركون عبئها يقع على كاهل الفلاحين وحدهم .

ولم يكن التصارع بأخف وطأة بين أفراد الشعب والنبلاء . فقد ظهر للعيان قبيل الثورة الفرنسية أن إعفاء النبلاء من الضرائب كان ينطوى على ظلم صارخ لاسيما أن الضرائب التى كانت قليلة فى القرن الخامس عشر وكانت لا تتعدى مليونا ومائتى ألف جنيه فى عهد شارل السابع قد أخذت تزداد عددا وكمًّا فى عهد لويس السادس عشر حتى بلغت ٨٠ مليونا من الجنيهات . وإلى جانب إعفائهم من الضرائب أصبح النبلاء فى العصور المتأخرة لا يؤدون كذلك الخدمة العسكرية وهى التى كانت تبرر إعفاءهم من الضريبة العقارية ولم يكن هناك نظام يحتم عليهم دفع مقدار معين من المال لإحلال غيرهم محلهم فى خدمة الجيش كما كانت الحال فى ألمانيا . وقد كان الحقد على النبلاء الجدد أشد من الحقد على طبقة النبلاء القديمة ونعنى بالنبلاء الجدد أولئك السوقة الذين أثروا واشتروا الألقاب بالمال وأصبحوا يتمتعون بامتيازات باعدت بينهم وبين طبقتهم القديمة وهى الإعفاء من الضرائب ومن الخدمة فى الحرس ومن أعمال السخرة وقد لاحظ توكفيل هذه الحال حين كتب أن

طبقة النبلاء لم تكن أطوع لمبادىء الثورة مما كانت عليه فى سنة ١٧٨٩ وأن البورجوازيين وأصحاب الألقاب الجديدة هم الذين كانوا أشد الناس بعدا وانفصالا عن تلك المبادىء. وفى بعض الأقاليم — كما يقول — كان النبلاء الجدد موضع كراهيه النبالة القديمة والبورجوازية فى آن واحد.

والخصام بين الطبقات هو دائماً خصام بين طبقة محرومة وطبقة محظوظة أو على الأقل بين طبقة غارمة وطبقة غانمة. ولما كانت الطبقات العليا تحاول أن تحتفظ بمغانمها وامتيازاتها إزاء الطبقات الدنيا فإن هذه الأخيرة تجد نفسها أو ترى أنها فى موقف الطبقات المضطهدة المظلومة وتبدو الطبقات العليا أمام ناظريها صاحبة الظلم والطغيان. ومن جهة أخرى فإن رغبة الطبقات الدنيا فى الإرتقاء والصعود تدفعها إلى تجريد الطبقات العليا من امتيازاتها وحينئذ تشعر هذه الطبقات المتخمة بأنها مهددة من جانب الطبقات الطامعة وتعتبر نفسها فى حالة دفاع مشروع إزاءها. وحين تصل الخصومة بين الطبقات إلى هذا الحد يخشى أن تنقلب إلى صراع سافر وغالباً ما يؤدى هذا الصراع بين الطبقات إلى حدوث الثورات.

يبدو لنا إذن أن الصراع بين الطبقات ينشأ عن عاملين. الأول الضغط أو الظلم الذى يقع حقيقة أو بتأثير الوهم والخيال من طبقة

على أخرى ، والثانى تيقظ شعور الطبقة التى تعتبر نفسها مظلومة وإحساسها بكيانها وبقوتها وبأهميتها فى المجتمع وتبلور مطالبها تجاه الطبقة العليا وسعيها للحصول على حقوقها .

على هذه الأسس قامت فى الماضى أنواع الصراع بين الفقراء والأغنياء فى الجمهوريات اليونانية وبين طبقة الدهماء وطبقة الأشراف فى روما ، وبين البورجوازيه من ناحية والنبلاء ورجال الكنيسة من ناحية أخرى فى انجلترا وفرنسا وهو نفس الصراع الذى نشهده اليوم فى أوروبا بين الطبقة العاملة والطبقة البورجوازية .

وبمقارنة أنواع الصراع التى نشبت بين الطبقات فى الشعوب المختلفة وفى العصور المختلفة يظهر لنا أن نتائجها كانت متباينة ، وأن هذا التباين يرجع إلى اختلاف العقليات والصفات العنصرية عند الشعوب التى كانت مسرحاً لهذا الصراع ، كما يرجع إلى الظروف التاريخية التى نشب فيها هذا الصراع .

ففى بلاد الإغريق والرومان حيث كان الأغنياء يمتلكون عبيدا يقومون عنهم بجميع الأعمال اليدوية والفنية كصناعة النسيج والمعادن والأسلحة تربية الأطفال بل والطب كذلك كان المواطنون الفقراء لا يكادون يجدون عملا . وحين كانوا يرون العبيد يكدون من حولهم فى كل مكان رسخت فى نفوسهم كراهية العمل واحتقاره

ويصف لنا فوستيل دى كولانج Fustel de coulanges تلك الحالة بقوله :

« حيثما وجدت التجارة فإن أرباحها تعود على الأغنياء بسبب المغالاة الفادحة فى الأثمان أما حيثما وجدت الصناعة فإن الصناع كانوا فى غالبيتهم العظمى من العبيد ، على أن روما حين وسعت رقعة ممتلكاتها وغدت شيئا فشيئا صاحبة السيطرة على جميع البلاد الواقعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط يسرت بذلك للمواطنين طريق الإثراء بممارسة التجارة وإجراء العمليات المالية وحين امتلأت الخزانة العامة عن طريق سلب البلاد المفتوحة وفرض الضرائب على الشعوب التى غلبت على أمرها أصبح فى إمكان الدولة أن تمنح المعونة لأفراد الطبقة الشعبية الفقيرة وذلك بتزويدهم بالخبز مجاناً وتسليتهم بحلبات الألعاب (Panem et circenses) ولكن الأمر فى بلاد الاغريق لم يكن على هذا النحو إذ كانت المدن الإغريقية على العكس من ذلك منطوية على نفسها وكانت فى عجزها عن تكوين دولة موحدة لا يفتر النزاع بينها حتى انهكتها الحروب التى كانت تقوم بين بعضها وبعض . ولما كانت معظم هذه المدن غفلا من الموارد الصناعية أو التجارية وكانت المدن الصناعية أو التجارية نفسها تبعثر أموالها وقوتها فى الحروب العقيمة التى يصبح فيها المنتصر اليوم مهزوماً فى الغد، فإنها لذلك لم يكن لها من الموارد ما يسمح بزيادة ثروتها العامة ويمكنها من إمداد

الفقراء بجزء من هـذه الثروة من غير مساس بثروة الآخرين، ولـكن الفقراء كانوا مساوين للأغنياء فى الحقوق وحين أدركوا أنهم « سادة الموقف فى الانتخابات أخذوا يفـكرون فى أن يصبحوا سادة الموقف من حيث الثروة كذلك ، وبدأوا محاولاتهم بطلب الأجر نظير حضورهم جلسات الجمعية الوطنية أو تنصيبهم للحكم فى بعض القضايا ثم أخذوا يبيعون أصواتهم، ولما وجدو أن هذه الوسائل ليست كافية أعلنوا الحرب سافرة على الأغنياء . واتخذت هذه الحرب فى بادىء أمرها شكل مطالب قانونية فطلب إلى الأغنياء أن يتـكفلوا بجميع المصروفات العامة وزيدت أعباؤهم من الضرائب وكلفوا ببناء السفن الـكبيرة وطلب إليهم أن ينظموا احتفالات للشعب على نفقتهم . وبعد ذلك ضوعفت الغرامات التى كانت توقع عليهم بمقتضى حكم المحاكم ثم أخذ القضاة يحكمون بمصادرة أموالهم لأتفه الأسباب ، وحكم على الـكثير من المواطنين بالنفى لا لسبب إلا لأنهم أغنياء وضمت أموالهم إلى الخزانة العامة ثم وزعت بعد ذلك فى شكل قطع نقدية صغيرة على الفقراء . وفى آخر الأمر لجأ الفقراء فى كثير من المدن إلى استخدام حقهم فى التصويت لاتخاذ قرارات تنص على إلغاء الديون أو لمصادرة أموال الأغنياء بالجملة . . وما كاد الشعب فى سيراكيوز يتخلص من الطاغية « دنيس Denys » حتى أصدر قرارا بتقسيم الأراضى

وفى ميسينيا[1] ما كاد الحزب الشعبي يتفوق على الأحزاب الأخرى حتى شرع فى نفى الأغنياء وتقسيم أراضيهم وحدث نفس الأمر فى بعض المقاطعات الأخرى . فما لبث الأغنياء المجردون من أملاكهم أن ازداد عددهم فكونوا جيشاً واسترجعوا به سلطتهم بالقوة . وهكذا تعاقبت الثورات فى كل مكان ، وقد كانت تهدف تارة إلى تجريد الأغنياء وتارة أخرى إلى إرجاع أملاكهم إليهم ووجد فيها الجانبان فرصة لارتكاب الجرائم وأعمال القسوة والوحشية .

وإذا كانت روما قد عرفت كذلك المنازعات الداخلية ، وحركات التذمر والهياج كما حدث فى عهد الإخوة « جراكيوس Gracques » ، وعرفت كذلك الحروب الداخلية كما حدث فى عهد « ماريوس » و « سيلا » ، إلا أنها لم تعان ما عانته أثينا من أنواع الدمار . فالصراع بين الطبقات فى أثينا كان ينتهى دائما بحروب داخلية متصلة لا ينتج عنها إلا الحكم الدكتاتورى (أو ما كانوا يسمونه حينئذ بالطغيان la tyrannie ، أو وقوع البلاد فى براثن العدو الأجنبي كالفرس ، والمقدونيين ، والرومان . أما فى روما فقد اتخذ الصراع بين الطبقات شكلا أكثر اتزانا بسبب سمو الروح الوطنية وسيادة النظام عند الشعب من ناحية ،

---

(١) Messène مقاطعة فى البلوبونيز وهى غير ميسينا فى جنوب ايطاليا . (المترجم)

وبسبب حكمة رجال « السناتو » الرومانى من ناحية أخرى . فنتج عن ذلك سلسلة من الاتفاقات وضروب التفاهم بين طبقة الشعب وطبقة الاشراف ، وعلى أثرها ازداد التقارب بينهما وامتزج كثير من أفراد الشعب بالاشراف عن طريق الزواج ، كما اشتركوا معهم فى ممارسة وظائف القضاء .

وفى فرنسا انتهى الصراع بين البورجوازية من ناحية وطبقة النبلاء ورجال الكنيسة من ناحية أخرى بقيام الثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩ ، كما انتهى صراع الشعب ضد البورجوازية بانتصار الحركة الشعبية فى ٣١ مايو سنة ١٧٩٣ . وبدأ بذلك عهد من الثورات تتابعت فيه أنظمة الحكم فحلت الجمهورية محل الملكية والدكتاتورية أو الامبراطورية[١] محل الجمهورية ، ثم حلت الملكية محل الامبراطورية[٢] ، وتعاقبت الأسر الحاكمة واحدة بعد أخرى[٣] . فلم يتسن لفرنسا أن تنعم بنظام ثابت من جراء هذا التعاقب إذ أن أطول نظام عرفته منذ قيام الثورة الفرنسية لم يدم سبعين عاماً .

أما فى انجلترا فان روح التفاهم والتعاقد والنزعة العملية عند الشعب الانجليزى ، ومزاجه المحافظ بطبيعته ، والثقة التى وضعها

---

(١) يقصد بذلك امبراطورية نابليون (المترجم)
(٢) ملكية لويس الثامن عشر الذى جاء بعد هزيمة نابليون فى واترلو . (المترجم)
(٣) يقصد بذلك أسرة نابليون الثالث التى جاءت بعد أسرة البوربون (المترجم)

فى صفوته المختارة من رجال الحكم كل ذلك كان من شأنه تدعيم النظم واستقرارها بالرغم من قيام ثورة قصيرة الأمد . وإذا كانت « الثورة الكبرى » فى سنة ١٦٤٠ ، وهى ثورة البرلمان الطويل ، قد انتهت فى سنة ١٦٤٩ بإلغاء الملكية ثم إلغاء مجلس اللوردات والكنيسة الانجليزية، فان جميع النظم الملغاة ما لبثت أن عادت ثانية ابتداء من سنة ١٦٦٠ أى بعد رجوع شارل الثانى إلى الحكم وتم تحسين حال الطبقات الفقيرة عن طريق سلسلة من الاصلاحات وبدون الالتجاء إلى ثورة جديدة .

وقد اتخذت الخصومة بين الطبقات والصراع بينها شكلا جديدا فى أيامنا هذه فهناك صراع الطبقة العاملة ضد البورجوازية ، أو بصورة أعم صراع الطبقة الكادحة le prolétariat ضد الرأسمالية. ذلك أن الطبقات الفقيرة فى روسيا تشمل من الفلاحين أكثر مما تشمل من العمال .

وإذا كان الأغنياء والفقراء قد وجدوا فى جميع العصور ، إلا أن الخلاف بين الطبقتين المتضادتين ، طبقة « الرأسماليين » وطبقة « الكادحين » يعد سمة من سمات العصر الحاضر ، وهو نتيجة للاخذ بمذهب الاقتصاد الحر الذى انطبع بطابع الفوضى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فقد أدى اعتناق هذا المذهب إلى سيطرة الطبقة البورجوازية ، وغدت هذه غريمة الطبقة الاستقراطية التى

كان لها السلطان قديما وغريمة الشعب الذى عاش فى بؤس وضعف . فلمــــا اختفت الاستقراطيـة ، انحصر النزاع بين الشعب والبورجوازية .

وقد أدى التطور فى النظام الاقتصادى إلى توجيه هذا الصراع بين الطبقتين وجهة خاصة . ونعنى بهذا التطور إنشاء الشركات المساهمة التى استطاعت بفضل توزيع الأسهم على عدد كبير من الناس (بما يقلل من اخطار المغامرة ودعوة الجمهور للاكتتاب) استطاعت أن تجمع رءوس أموال ضخمة مكنتها من ايجاد الموارد الكافية لتمويل المشروعات الكبيرة كحفر الترع ومد السكك الحديدية والبحث عن المناجم وبناء المصانع وشق القنوات عبر البرازخ[1] الخ . . . ولم يكن فى استطاعة الأفراد وحدهم القيـام بمثل هذه المشروعات الضخمة مهما بلغت درجة ثرائهم . وقد ازدهر الاقتصاد ازدهارا كبيرا على أثر تحقيق هـذه المشروعات . ولا أدل على ذلك من زيادة سكان أوربا إلى ثلاثة أمثال عددهم فى قرن واحد . على أن كل تقدم يحمل لسوء الحظ فى طياته غرما وقد كان غرم التقدم الاقتصادى فى القرن التاسع عشر فادحا تلقت الطبقة العاملة أكبر قسط منه .

---

(١) مثل قناة السويس التى ساهمت الحكومة المصرية بجزء كبير من تكاليف حفرها ، وبجميع العمال ، الذين أتموا هذا الحفر ، ومع ذلك وجدت من ينكر أحقية مصر بامتلاكها ، وثارت الدول الاستعمارية حين صدر قرار الحكومة المصرية بتأميمها فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ . (المترجم)

ويقول لنا « جوزيف شارمون Charmont » فى كتابه « تغيرات القانون المدنى »[1] إن عيوب هذا النظام كانت تنحصر فى فصل العمال الذين لم يكن لهم نصيب فى أرباح المشروع عن الرأسماليين الذين كانوا يحصلون على جميع الأرباح بدون أن يقوموا بالعمل المنتج . ولا ينكر أحد أن هؤلاء كانوا يقدمون رؤوس الأموال اللازمة ويخاطرون بتعرضهم للخسارة . ولكن العمال الذين يسهمون فى نجاح المشروع بعملهم المتواصل خلال سنين طويلة يرون كذلك أنهم أهل لنيل بعض الحقوق . ومن دواعى الأسف أن أصحاب رءوس الأموال تحت تأثير روح الجشع والرغبة فى تحقيق أرباح طائلة وفى نشوة ازدهار التجارة والصناعة — كانوا ينظرون فى غالب الأحيان إلى الأجر الذى يدفعونه لعمالهم لا على أنه جزاء عادل يجب أن يتيح للعامل عيشة ميسورة بل على أنه باب من أبواب المصروفات يتعين عليهم أن ينزلوا به إلى الحد الأدنى . لهذا وجد العامل نفسه وقد انحدر إلى مستوى يكدح فيه لقاء أجر مرسوم لا يكفى فى أغلب الأحيان لعيشه وذلك نظير قيامه بعمل لا استقرار فيه ولا ضمان له .

وقد ظهرت الطبقة الكادحة Prolétariat فى انجلترا منذ مطلع القرن الثامن عشر وفى فرنسا حوالى سنة ١٨٣٠ . وهى فى ارتباطها بالصناعة الكبرى وبالتقدم الآلى قد نشأت منذ اليوم

---

(١) Transformations du droit Civil

الذى أصبح فيه العامل مجرد يد عاملة ونكرة بين آلاف عدة يضمها المصنع الكبير حيث يتحتم عليه أن يعمل عشر ساعات أو اثنى عشرة ساعة نظير أجر يفرضه عليه رؤساء لا يتحملون أية مسئولية . وعلى ذلك يمكن القول إن التقدم المادى للمجتمعات قد أدى فى هذه الظروف إلى الهبوط بالآف العمال إلى حالة البؤس وحكم عليهم بالعيش عيشة شظفة بل و بالتدهور الأخلاقى المحقق .

ومن جهة أخرى فان جهل الغالبية العظمى من المساهمين فى الشركات بطريقة ادارتها قد اضطرهم إلى الالتجاء إلى حفنة صغيرة من رجال الأعمال أصبحت هى المسيطرة على إصدار الأسهم والمكونة لمجالس الادارة ، وصارت تجمع فى يدها جميع الأرباح وتوزعها كيف تشاء . على هذا النحو أصبحت الشركات المساهمة حكرا لحفنة من رجال المال يمنحون أنفسهم المكافآت السخية نظير الساعات القليلة التى يكرسونها لاجتماعاتهم الموسمية ويعاملون مساهميهم — على حد تعبير المؤلف الذى ذكرناه — « كما لو كانوا مسخرين يسهل خداعهم بتقارير وهمية عارية عن الصدق والصراحة . » هؤلاء المساهمون ينالون فى العادة جزءاً من الأرباح إذا كان المشروع ناجحاً أما فى حالة الكساد فانهم يخسرون كل شىء . ولكن المشروع الكاسد بالنسبة للمساهمين قد يكون ذا فائدة لأعضاء الإدارة .

فى هذه الظروف الإقتصادية التى ذكرناها أدى التصارع بين البورجوازية وبين الطبقة الكادحة إلى تيار فكرى جديد نعنى به التيار الاشتراكى والشيوعى. أما الاشتراكية فقد عرفها كورنو Cournot« بانها «الجهود التى تبذل لمعالجة المساوىء التى نجمت عن تقدم النشاط الصناعى، والسعى وراء الثراء والتى أخذت تزداد كل يوم وضوحا، وذلك بإجراء تجديد شامل للنظم الاجتماعية ، وقد اقترح الكثير من وسائل التجديد وهى وسائل تختلف فيما بينها أشد الاختلاف غير إنها ليست من شأن بحثنا الراهن . ولكن الذى يتصل بموضوعنا هى النتائج التى أحدثتها تلك التيارات الفكرية وما نشأ عنها من عواطف مختلفة .

وإحدى هذه النتائج وأكثرها إثارة للدهشة تلك الكراهية التى عمت جميع الطبقات المتوسطه وجميع المهن الحرة المعروفة باسم البرجوازية والتى انصبت على رؤساء الأعمال وكبار الرأسماليين الذين يراهم العمال نوعا من الاقطاعية الصناعية والمالية. ولم تكن كراهية الكتلة الشعبية منصبة على البرجوازية العليا وحدها التى أثرت عن طريق السيطرة الاقتصادية بل أنها شملت أيضا متوسطى البرجوازية وكذلك صغارهم . ولم يحفل الناس بالتمييز بين رأس المال الناتج عن الاقتصاد والتوفير ورأس المال الناتج عن المضاربات والعمليات المالية الكبرى؛ ومن هنا نظر إلى كل برجوازى سواء أكان كبيراً أم صغيراً على أنه « رأسمالى »

وأعتبرت هذه الكلمة الأخيرة مرادفة « لنهاز الفرص » الذى يستغل وسائل غير انسانية ويستفيد من نظام اجتماعى فاسد .

على هذا النحو جعلت الطبقة العاملة التى تشتغل فى الصناعات الكبرى من نفسها خصما عنيداً للطبقة البرجوازية بأكملها أى لجميع الفئات التى تتمتع بقدر من وسائل الرفاهية وبنوع من الأمن على المستقبل وتحتفظ بمجموعة من التقاليد الخ . . . وأصبحت الطبقة العاملة فى تعرضها للبطالة وعدم اطمئنانها للغد تبدو كما لو كانت دخيلة على الدولة لا جزءاً مندمجا فى كيانها . وهذا التعبير بالذات هو الذى ذكره الأستاذ « برنار لا فرنى Lavergne » فى سنة ١٩٣٨ إذ قال : إنه منذ سنة ١٨٩٠ أخذت الطبقة العاملة فى فرنسا تتحول تدريجيا إلى جسم غريب عن الدولة ؛ فقد تحررت من كل طاعة لقوانين البـــلاد التى لا تروق لها وعلى الأخص القوانين الخاصة بالتحكيم الاجبارى (الصادر فى ٣١ ديسمبر ١٩٣٦ و ٤ مارس ١٩٣٨) والقوانين الخاصة بالاتفاقات الاجتماعية التى تستبعد الاضراب قبل التحكيم أو قبل انتهاء مدة الاتفاق الجماعى (وهى القوانين الصادرة فى ٢٤ يونية ١٩٣٦) . وقامت إضرابات العمال فى وسط الحرب للحصول على أجور مرتفعة كما لجأ عـدد من الموظفين إلى الوسيلة نفسها للمطالبة بزيادة مرتباتهم بينما كانت الميزانية فى عجز . ومن ثم أصبح المجتمع فى خطر قيام حرب اجتماعية

وذلك من جراء الصراع بين اقطاعية أصحاب الأموال وكبار رجال الصناعة الذين أبوا التنازل عن أى شىء من امتيازاتهم وبين سخط الطبقة العاملة التى لا تريد أن تحترم شيئا . ومما زاد الأمر تعقيداً تلك المنافسات السياسية والتيارات اللادينية والالحاد وطغيان العناصر الفوضوية . فالواجب إذن للدفاع عن المجتمع الذى تكتنفه الأخطار من كل جانب أن تشرع الهيئات الحاكمة فى اتخاذ وسائل إصلاحية وأن تدعم القوى الاخلاقية التى تستطيع تنظيم الأهواء الجامحة والسيطرة عليها . أما ما يأتى بعد ذلك فلا يزال فى ضمير الغيب .

الفصل الخامس

انحيازات الطبقات واتجاهاتها الخلقية

تقوم وراء الاتجاهات الخلقية العامة المشتركة بين جميع الطبقات اتجاهات خلقية خاصة تتميز بها كل طبقة . فليست الواجبات الواحدة تتساوى فى أهميتها بالنسبة لجميع الطبقات ، كما أنها ليست على درجة واحدة من حيث طابع الإلزام . ولا تتمتع فضائل بعينها بقدر واحد من التقدير والاحترام لدى جميع الطبقات ، وقل مثل هذا فى الأحكام التى تصدرها الطبقات المختلفة على الأخطاء الخلقية فهى تتفاوت فى درجة قسوتها أو تسامحها . وبهذا المعنى يمكن القول أن لكل طبقة طابعها الخلقى أو اتجاهها الخلقى المميز لها .

والحقيقة أننا نميل فى العادة لأن نكون أكثر تسامحاً تجاه خطأ من الأخطاء كلما كنا أكثر تعرضاً للوقوع فيه أو نشعر بنوع من الإغراء نحو ارتكابه . ونتطلب من الآخرين إتقان الأعمال والواجبات التى نقوم بها نحن فى دقة وصرامة أو التى لا يكلفنا أداؤها إرهاقاً ولا عنتاً . كما يزداد تقديرنا للصفات أو الفضائل التى يتيح لنا نشاطنا العادى أو ثقافتنا الممتازة فرصة

أكبر لإدراك أهميتها أو جمالها أو حاجة البلاد إليها أو ما تضفيه على العلاقات الاجتماعية من متعة وصفاء.

وهذه الحقيقة توضح لنا أن أنواع الحياة ومستوياتها المختلفة بكل ما تنطوى عليه من ضروب الإغراء والتخاذل والعادات الحسنة والقبيحة تؤدى فى كل طبقة إلى فوارق كبيرة فى الأحكام الخلقية . على أن تمييز الخير من الشر، والشعور بالواجب، والرضا عن النفس من عمل الخير، أو تأنيب الضمير بعد عمل الشر ، كل هذه الاتجاهات الخلقية لا تتسم بنفس الوضوح ، ولا بنفس القوة ولا تنطبق دائماً على نفس الأفعال ، أو على نفس القدر من الأفعال بالنسبة لجميع الطبقات .

ومن ناحية أخرى فسبب اختلاف هذه الوسائل فى تصور الأشياء أو الشعور بها وكذلك بتأثير العادات المكتسبة واعتياد تصرفات معينة نلتقطها من البيئة الاجتماعية التى ننتمى إليها نجد أن كل طبقة تتميز بقدر من الانحيازات ذات صلة بعواطفها وأهوائها وأذواقها وميولها ، كما تتفق أحياناً مع المثل الخلقى الذى تتخذه لنفسها .

وسنتكلم أولا عن الانحيازات وعن قواعد الآداب واللياقة التى تتميز بها كل طبقة ، ثم نتعرض بعد ذلك للواجبات والفضائل فنكون بذلك قد تدرجنا من المظاهر السطحية إلى المعانى العميقة .

الانحيازات :

لكل طبقة نوع حياتها الخاص بها وأعمالها التى تتطلب منها استعدادات خاصة . وبقدر ما تبتعد هذه الأعمال عن الأعمال الخاصة بالطبقات الأخرى فإنها تكون غير مستعدة للقيام بأعمال أخرى تختلف عن أعمالها . وفى هذا المعنى يروى لنا آرثر يونج فى كتابه : « رحلات فى فرنسا »[1] أنه لم يصادف قط فى انجلترا أحداً من ملاك الأراضى ، له ثقافة وعادات هذه الطبقة ، قد استطاع أن يدخل فى ميدان الصناعة أو التجارة دون أن يصيبه الإفلاس أو على الأقل دون أن يصاب بخسائر فادحة . وقد يكون ذلك راجعاً إلى ما اعتاده نبلاء الريف من عدم الاهتمام بالتوفير وبالأرباح الصغيرة التى هى روح التجارة وبدونها لا يكتب لها نجاح . كما قد يكون راجعاً إلى شعورهم الناتج عن ثقافتهم الخاصة والذى يدفعهم إلى استهجان الآراء والمبادىء الخاصة بالتجارة .

من هذا نستطيع أن ندرك أن اعتزاز كل طبقة بنفسها يجعل أفرادها يغالون فى تقدير قيمة الأعمال والمهام التى تمرسوا فيها وتدربوا عليها ويزداد ميلهم إلى هذا الغلو كلما كانت تلك الأعمال

---

(١) Arthur Young : Voyages en Fran[illegible]

والمهام مصدر قوة ونفوذ لهم . كما أنهم يميلون إلى الغض من قيمة الأعمال التى يصعب عليهم أداؤها . ويؤدى بهم ذلك فى الوقت نفسه إلى تمجيد الصفات الضرورية لنوع حياتهم وإلى احتقار الصفات التى تتطلبها حياة الطبقات الأخرى أو الاستخفاف بها .

ويمكن القول بوجه عام إن لكل طبقة كبرياءها . فالطبقات التى تشعر بشىء من التفوق والسمو على غيرها سواء أكان ذلك راجعاً إلى شرف المحتد أو الثقافة أو المركز الاجتماعى أو الثروة أو العلم تنزع بفطرتها إلى الحط من قيمة الطبقات الأخرى أو احتقارها . ويشهد على ذلك تحول بعض الكلمات عن معناها الأصلى إلى معنى التحقير . فكلمة rustre او Vilain كانت فى الأصل تعنى ساكن الريف ، ولكنها تقال عادة اليوم بمعنى « جلف » أو « خبيث » ، وكذلك كلمة manant . فقد كانت تعنى فى الأصل ساكن المدن ، ثم أصبحت الآن تطلق على فاسد الخلق [١] .

ومن ناحية أخرى فإن الطبقات الدنيا كلما ازداد شعورها بدونيتها حاولت أن تطرد عن نفسها عقدة النقص هذه باتهام

---

(١) وكذلك فإن كلمة « فلاح » عندنا يقصد بها ساكن المدن الشخص الساذج أو الذى لا يساير الأذواق والأوضاع الحديثة (المترجم)

الطبقـات العليا بالصلف والـكبرياء والأنانية والغطرسـة اما بالإشارة من طرف خفى إلى نواحى الضعف وعدم الـكفاية عند بعض أعضائها الذين لم يصلوا إلى درجة الآخرين فى المقدرة وحسن السمعة ، وأما بالتهكم بتقاليدها ومواضعاتها أو بجعل أسمائها وأوصافها سبة للذين يحاولون تقاليدها . فكلمة «ارستوقراطى» أو «بورجوازى» إذا أطلقها عامل على زميل له كان يعنى بها التهكم عليه واحتقاره .

يضاف إلى هذا أن العواطف المألوفة أو السـائدة فى طبقة معينة هى مصدر كثير من أحكامها التقديرية . فاعتبار الاستقلال مثلا أعلى عند الطبقات الميسورة يجعلها ترفض أن تجبر على العمل الجسمى سواء أكان هذا الاجبار عن طريق السلطة كما هى الحال فى الأشغال الشاقة أو بسبب الحاجة لـكسب العيش كما هى الحال فى سائر الأعمال اليدوية . وفى الوقت نفسه فإن اعتبارها الأناقة وحسن المظهر مثلا أعلى يجعلها تنظر نظرة احتقار الى الأعمال الخشنة أو التى لا جمال فيها أو التى لا تتلائم مع رقتها . وكل هذه الدوافع تفسر لنا ما استقر فى نفوس هذه الطبقات من حكم جائر على الأعمال اليدوية فى عمومها . فالبورجوازى أو رجل الطابقة المتوسطة يفضل دائما أن يزوج ابنته لموظف فى مكتب على أن

يزوجها لعامل وذلك مع فرض تساويهما فى جميع الظروف الأخرى[1] ويفضل لولده مهنة المحامى (ولو كانت كاسدة) على مهنة القصاب (ولو كانت تدر أرباحا كثيرة) .

ولكى يعد العمل اليدوى مقبولا وشريفاً فى نظر الطبقات العليا يجب أن يقوم به المرء فى حرية وبدون مقابل . كأن يزرع حديقته بنفسه ويقلم أشجارها أو يجتث منها مايريد الخ . . . فمثل هذه الأعمال لا غبار عليها . وفى أكثر العصور أرستقراطية لم يأنف لويس السادس عشر أن يتعلم مهنة القفال ، كما أن مارى انطوانيت وسيدات البلاط لم يجدن أدنى غضاضة فى حلب الأبقار وصناعة الجبن والزبد بأنفسهن فى « البتى تريانون[2] » ولم يكن احتقار التجارة فى العهد الملكى القديم إلا لأنها تتسم بطابع المنفعة الذاتية . فلم يكن تجريد صاحبها عن رتبته بسبب المهنة ذاتها بل بسبب الكسب . ولذلك فإن لورد « روس Ross » لم يعتقد أنه خرج على تقاليد النبالة حين صمم منظارا مقربا (تلسكوب) لأن هذا العمل كان لخدمة العلم لا بقصد الكسب والربح . وينطبق هذا نفسه على الأعمال ذات الطابع الجمالى كأعمال التطريز والمخرمات (الدنتلا) وغيرها وهى الأعمال التى تنصرف

(١) بل قد بلغ من احتقار العمل اليدوى فى مصر والشرق عموماً أن الرجل يفضل أن يزوج ابنته لموظف صغير على أن يزوجها لصاحب مصنع أو تاجر يكسب أضعاف ما يكسب الموظف . ولكن لحسن الحظ فإن هذه النظرة الخاطئة قد بدأت اليوم تتلاشى شيئاً فشيئاً . (المترجم)

(٢) شاليه صغير فى حدائق قصر فرساى .

إليها السيدات فى أوقات فراغهن . وعلى العكس من ذلك فإن الأعمال المبتذلة كترقيع الملابس ورفو الجوارب أو غزلها تعتبر أعمالا مهينة إلا إذا قامت بها سيدات المجتمع الراقى لمساعدة الفقراء ، وفى هذه الحال فإن الرغبة الطيبة وحب الاحسان الذى دفع إليها يعطى لهذه الأعمال اليدوية صفة الجمال التى لا تتحقق بدون ذلك .

وقد يذهب التمسك بالانحيازات أحيانا إلى حد منافاة الأخلاق نتيجة لنوع من التحريف الأعلى للواقع . ومن قبيل ذلك ما يرويه « مابلى Mably » من أن صغار النبلاء فى ألمانيا فى العصـــور الوسطى — وهم من يعرفـون بالصـقور Les hobereaux كانت تصل بهم غطرسة الطبقة العسكرية إلى حد اعتبار التقاضى أمام المحاكم طريقة بورجوازيه محتقرة ماداموا يستطيعون أخذ حقهم بالقوة والسلاح [1] . وكان نفس الشعور هو الذى يدفع القبائل الجرمانية القديمة — على حد قول تاسيت Tacite إلى الاعتقاد بأنه من المخجل أن يحصل

---

(١) لاتزال هذه النعرة فاشية فى الريف المصرى وهى نعرة الأخذ بالثأر دون الالتجاء إلى المحاكم وينظر بعين الاحتقار إلى من لا يأخذ ثأره بيده . وهكذا نرى أن هناك عادات متشابهة فى الريف عند كثير من الشعوب ولكن التقدم الحضارى يقضى عليها فى بعض الجهات على حين تظل باقية فى جهات أخرى . ومما لاشك فيه أن تقدم العلم والمساواة بين الطبقات سيقضيان على هذه العادة فى مصر كما قضيا عليها فى البلاد الأخرى . (المترجم)

المرء بالذهب على ما يستطيع أن يحصل عليه بالدم[1]. ويقول « سيسموندى Sismondi » فى كتابه « تاريخ الجمهوريات الايطالية[2] » ، أن النبلاء الايطاليين كانوا حتى القرن الثالث عشر يعتبرون « من الأمور المخجلة أن يخضعوا للقوانين ما دام فى مقدورهم اقرار العدالة عن طريق السلاح » ؛ وهذا يفسر لنا تسامح الطبقة النبيلة فى القرن الرابع عشر مع زعماء العصابات الكبرى وإزاء حوادث قطع الطريق بواسطة العصابات المسلحة .

وقد لاحظ « بنتام Bentham » ملاحظات طريفة تلقى ضوءا على هذا الاختلاف بين الطبقات فى العادات والمثل العليا فقال أن الطبقات الشعبية تنظر بعين التسامح إلى صراع بطريق الملاكمة لأنه محاولة لإيقاع بعض الألم الجسمانى على الخصم ولكنها لا تقبل المبارزة التى تحبذها الارستقراطية لأنها محاولة للقتل . ولاحظ كذلك أن البورجوازية تفضل ديون التجارة على ديون الميسر على حين أن الطبقة الأرستقراطية تفضل العكس وتصف ديون الميسر بأنها ديون شرف . ويضيف بنتام — حين يتحدث عن مستويات الاستهجان — أن الطبقات الديمقراطية تنظر الى الأشياء من حيث ما تجلبه من الضرر قبل أن تنظر إليها من حيث ما تسببه من السخرية . أما عند الطبقة

---

(١) أى أن ينتزع المرء بالقوة ما يريد أن يحصل عليه ولو أدى ذلك الى إراقة الدماء

(٢) Histoire des Républiques Italiennes

الأرستقراطية فالأمر على عكس ذلك تماما . والسبب فى ذلك أن الطبقة الشعبية تقيس كل شىء بمقياس المنفعة على حين أن الطبقة الأرستقراطية تقيس الأشياء بمقياس حسن المظهر . وفى الأكاديميات والكليات والأوساط الجامعية أو المجتمعات الراقية نجد أن الاهتمام باللياقة والاحتشام يتقدم على الاهتمام بتطبيق العدالة فى ترشيح الأعضاء ؛ ولذلك نجد أن هذه الأوساط تفضل أن تعين فى أحد الكراسى الجامعية أو تزكى ترشيح عضو ممتاز من حيث مراعاته مبادئ اللياقة والاحتشام ولو كان أقل جدارة من عضو آخر لا يتسم بهذه السمة :

المظهر وقواعد اللياقة :

تأتى بعد الأحكام التقويمية التى تصدر عنها الانحيازات ، الأحكام التى تعين المظهر وقواعد اللياقة . فما يعد من مستلزمات « المظهر اللائق » فى طبقة معينة قد يعد فى طبقة أخرى نوعا من التحذلق يبعث على السخرية ، بل قد يبعث على الاستهجان باعتباره من التصرفات المنافية للخلق . ويذكر لنا « سرفان » فى هذا الصدد : « أن الواحد من أفراد الطبقة العليا فى القرن الثامن عشر كان يشبع غروره باتخاذ خليلة من فتيات المسارح أو يهجر زوجته ليتخذ لنفسه عشيقة من زوجة آخر ، وكان يتباهى بمباذله وموبقاته وبأنه شيطان محبوب » .

وقد اتخذ ادعاء الفسق هذا والتباهى به شكلا آخر عند الطبقات الشعبية . إذ يروى صديق لى بلغ الثمانين من عمره كان يشغل منصب مهندس عام بالسكك الحديدية، وكذلك منصب مفتش بمدارس التدريب المهنى ، مما أتاح له أن يلاحظ عن كثب عدداً كبيراً من سائق القطارات والعمال — يروى لى هذا الصديق : أنه كان يعجب أشد العجب لما كان يجده من التناقض بين سلوك العمال الفعلى وما يختلقونه من أقاويل . فقد كان الواحد منهم يحرص أشد الحرص على سمعة زوجته ويغار على عفتها، ولا يحيد فى سلوكه عن هذا المبدأ . ولكنه يفتعل نوعاً من الشك فى طهارتها ويدعى أنه لا يعلق على انحرافها أهمية كبيرة ، ويحاول أن يدخل فى روع الآخرين أن له صولات وجولات فى ميادين الفسق والدعارة ، وكل ذلك بدافع من التفاخر والزهو الباطل . ولا يوجد مثل هـــذا الادعاء والتباهى بالفسق بين أفراد البورجوازية الطيبة المستقيمة الذين تتمشى لديهم اللغة المهذبة مع الهندام الحسن .

ومن الطبيعى ألا تكون الأحكام التى تصدرها إحدى الطبقات على الأخرى كالأحكام التى يصدرها حكم عدل غير متحيز يرسم حدود الخلق والذوق السليم . فما يعد احتراماً للذات وللآخرين فى طبقة معينة قد يعد نفاقاً فى طبقة أخرى ، وما يعد صراحة وتلقائية فى وسط معين قد يعد تبذلا وإسفافاً فى وسط آخر .

ومما لاحظته الكونتيسة « دى بوانى De Boigne » فى هذا الصدد وأشارت إليه فى مذكراتها : أن سيدات المجتمع الراقى تنم تصرفاتهن عن عدم الكلفة ويتركن طبيعتهن على سجيتها مما يشيع فى الجو روح الإلف والشعور بأنهن ، أينما حللن ، فى بيوتهن ، حيث يستقبلن فى أدب وود . ولكن مثل هذه الطريقة فى التصرف تصدم الطبقات الأخرى ، وعلى الأخص البورجوازية فإنها تضيق بها لما طبعت عليه من الاهتمام بالصغائر وشيوع الحسد فيما بينها . ذلك أن لكل طبقة فى الواقع طريقتها الخاصة فى مراعاة قواعد التأدب ولها فنها الخاص فى المعاملة بحيث لا تصدم عواطف الآخرين وتحوز رضاهم .

وقد سنحت فرص كثيرة لأحد أصدقائى — وهو يسافر كثيراً بالسكك الحديدية — لأن يلاحظ الفروق الشاسعة فى قواعد التأدب بين الطبقات الشعبية والطبقات الميسورة . فعندما يسافر بالدرجة الثالثة غالباً ما يحدث أن يدعوه رفقاء السفر لأن يقاسمهم طعامهم ولا يحدث هذا بتة حين يسافر بالدرجة الثانية . ذلك أن ما يراه ركاب الدرجة الثالثة من واجبات الأدب يعتبره الآخرون إلفا وتدخلا فى غير موضعه . وما تراه البورجوازية من واجبات التحفظ والاقتصار تعتبره طبقة الشعب أنانية . كما أن التضامن الذى يبدو بشكل واضح بين أفراد الشعب وحاجتهم الدائمة لتبادل وسائل المعونة تخلق فيهم أنواعاً من السلوك والشعور

تختلف عن تلك التى نجدها بين أفراد الطبقة البورجوازية الذين يعيشون فى يسر ويستطيع كل واحد منهم أن يكتفى بذاته . ومن هذا الاختلاف تتفاوت أحكام كل من الفريقين وتقديراتهم لنفس الأمور .

وبالرغم مما قدمناه من وجوه الاختلاف فمن الواضح أن الطبقات العليا تعلق على قواعد التأدب وطرائق السلوك من الأهمية أكثر مما تعلق الطبقات الدنيا وأنها تهتم كثيرا بتحديد ما يليق وما لا يليق . « فمن الطبيعى — كما لاحظ البارون دى بزنفال De Besenval فى « خواطره عن حسن المظهر »[1] — أن يكون للفئات التى يجنبها ثراؤها عناء البحث عن القوت اليومى، ومصاعب الكفاح من أجل العيش خصال أرق وتهذيب أكبر » . ثم يضيف إلى هذا « أنه من السهل كذلك أن نفسر ما يمتاز به نبلاء البلاط من تأدب : إذ أن حرصهم على إرضاء الملك أو الأمير يحتم عليهم أن يتقنوا التظاهر بإنكار الذات ويجعلهم يبدون اقل اهتماماً بما يمنح لهم من أولئك الذين يعتبرون أنفسهم على قدم المساواة ويحرصون دائما على أن يراعى بعضهم كرامة بعض » . وقد لاحظ « والترسكوت » كذلك فى مؤلفه « أمواه القديس رونان »[2] أن الطبقات العليا تعرف جيداً أن هناك مظاهر يجب أن تلاحظ وشعوراً يجب أن يراعى

---

(١) Reflexions sur le bon ton.

(٢) Les eaux de Saint Ronan.

ولا ينبعث ذلك عن إحساس أحدهم بواجبه نحو الغير بقدر ما ينبعث عن إحساسه بواجبه نحو نفسه . ومما يؤسف له أن هذا الاحترام للذات وهو ما تتميز به الطبقات العليا قد أعوز الكثيرين من أفراد الجماعات فى ديموقراطياتنا الحديثة وعلى الأخص فى السنوات الأخيرة للجمهورية الثالثة فى فرنسا[1] ؛ ولطالما هاجمت الصحف اليومية والأسبوعية فى شكل نوادر وأقاصيص لاذعة عدم المبالاة وروح التبذل التى اتسم بها بعض رجال السياسة وبعض رجال مكاتب الوزراء فى ذلك العهد .

الواقع أن التربية القويمة تسير جنبا إلى جنب مع الثراء عند الطبقات العليا أو على وجه التحديد عند تلك الطبقات التى توارثت الثراء أكثر مما اكتسبته إذ يسود أفرادها الاهتمام بالمظهر ومراعاة شعور الآخرين واحترام العرف والتزام قواعد التأدب واللياقة وحب « الفخفخة » والتحرر من قيود السلوك والإيماءات والألفاظ. ومما يتصف به «كرام المحتد» و«علية القوم» فى الواقع: السيطرة على النفس والتحكم فى كل بادرة ومراعاة ما يصدر عنهم من قول أو فعل والتزام القصد فى العبارة . أما عند الطبقات الشعبية فالأمر على عكس ذلك إذ تتغلب لديهم الرغبة فى التحرر من كل قيد فلا يهتمون إذا كانت تصرفاتهم تضايق الآخرين أو

---

(١) وهى الجمهورية التى سقطت بعد هزيمة فرنسا المنكرة أمام الألمان فى سنة ١٩٤٠ . (المترجم)

تصدمهم كما يميلون إلى فعـــل ما يروق لهم ويرفعون أصواتهم أو يضحكون كما يريدون وهذه النزعات تتغلب لديهم على الاهتمام بالمظهر واللياقة ومراعاة ما يبعث على الاحترام ، ولذلك فان سيطرة الطبقات الشعبية فى عصور الثورات تؤدى إلى تغيرات يختلف حظها من العمق فى أنواع السلوك الاجتماعى وألفاظ اللغة . ولا أدل على ذلك مما حدث إبان الثورة الفرنسية إذ اختفت قواعد التأدب وأصول « الإتيكيت » التى كانت سائدة فى العصر الملكى مثل تقبيل اليد والانحناءات ومظاهر التعظيم والإجلال وحلت محلها وسائل جافة وغليظة وألفاظ صارمة كاستخدام كلمة «مواطن» و «مواطنة» بدلا من كلمة «سيد» أو « سيدة » أو «آنسة» وكالتخاطب بضمير المفرد واستخدام ألفاظ السباب التى ذخرت بها عبارات الثوار ومقالات «الأب دوشين Pére Duchenne[1]» التى كان يحررها «هيبير Hébért[2]» .

الصفات والفضائل :

إذا كان التبذل فى القول أو الفعل يشير إلى غلبة الأنانية

(٢،١) الأب دوشين : اسم جريدة من أعنف جرائد الثورة الفرنسية ، وكان يحررها «هيبير» وهو من أشد رجال الثورة تحمساً للعنف والقوة . وقد حبذ فى مقالاته مذابح سبتمبر ، وكان له تأثير كبير على الجمعية الوطنية حتى قبض عليه وحكم عليه بالإعدام شنقاً مع كثير من أنصاره فى سنة ١٧٩٤ .
(المترجم)

على الغيرية وعلى عدم الاهتمام بالآخرين أو احتقارهم وعدم الحرص على نيل التقدير والسمعة الطيبة ، فإن توخى آداب المعاملة — وهو ما يعرف « بالطيبة المكتسبة » — يتضمن قدراً من الغيرية وينطوى على روح البر والتضحية ، إذ يقاوم المرء ما يعرض له من بوادر أنانية ، ويهيمن على نفسه ، ويبذل جهداً كبيراً لكى يرضى الآخرين ويتجنب مضايقتهم فى أى أمر . وبهذا المعنى يكون التأدب فضيلة إلى حد ما .

وليست هذه الصفات وحدها هى التى تحدد اختلاف تكيف الطبقات المختلفة بالحياة الاجتماعية . فالرقة والتلطف ليستا الصفتين الوحيدتين اللتين تتحلى بهما صفوة القوم ، بل إنها تمتاز أيضاً بالقدرة على الإخلاص للصالح العام وبالتطوع للتضحية فى سبيل الوطن ، وبالرغبة فى تنوير جميع المواطنين ، وبالإصرار على اكتساب الكفاءة التى تمكن من خدمة الدولة والعمل على إصلاح الأخلاق والتخفيف من حدة البؤس . وهذه الصفات التى تكون زبدة الأخلاق فى أى دولة ، ليست وقفاً على طبقة معينة ، بل نستطيع أن نجدها عند أفراد من جميع الطبقات إلا أنها مع ذلك تشيع فى بعض الأوساط أكثر مما تشيع فى أخرى . فالفردية الأنانية وحب الكسب والسعى إلى الإثراء دون تقيد بسلامة الوسائل ، كل هذه صفات نجدها لدى التجار وكبار رجال الصناعة أكثر مما نجدها لدى أفراد الطبقة المتوسطة من

ذوى المهن الحرة . كما أن عدم الاهتمام بالمصالح العامة للوطن والميل إلى إرضاء مطالب الطبقة وتقديمها على صالح المجتمع صفات يغلب وجودها لدى أفراد الطبقة العاملة[1] . ويتصف أفراد الطبقة الوسطى ، أو البورجوازية المجدة العاملة بالاهتمام بحل مشاكلهم بأنفسهم والاعتماد — لتحسين حالهم — على العمل الموصول ، وعلى تعود الاقتصاد والتوفير . أما الرغبة فى العيش عالة على الآخرين والسعى إلى كسب المال بدون عمل ، والاعتماد على الدسائس والمحسوبية والاتصالات السياسيه للوصول إلى الغرض فإنها صفات من يمكن أن نطلق عليهم اسم حثالة البورجوازية ، أو حثالة الشعب ، أو من نستطيع أن نلقبهم كذلك : « بالخاملين العاطلين » . ولا نجد فى المجتمع من هم أحط من هؤلاء إلا طبقة من يعيشون على أعمال القرصنة كقطاع الطرق واللصوص والمجرمين .

وإذا كان الطفيليون وذوو الوجه الصفيق والملحفون فى الطلب ومن على شاكلتهم ممن تأصلت فيهم روح التسول واتخذت أشكال مختلفة وراء حجاب من المظاهر البراقة — إذا كان أمثال

---

(١) لاحظنا أن المؤلف ينكر ، فى مواضع عدة ، على العمال وطنيتهم ويتحامل عليهم ، وليست هذه وجهة نظر موضوعية . والحقيقة أن العمال هم الدعامة الأولى لبناء صرح الوطن ، وإذا كانوا يحتجون أحياناً أو يثورون فما ذلك إلا لدفع استغلال أصحاب العمل والمطالبة بحقوق مشروعة . (المترجم)

هؤلاء يوجدون فى كل طبقة بما فى ذلك طبقة الصفوة نفسها إلا أن روح الكسل والخمول والرغبة فى الحصول على المتعة بوسائل خسيسة والاستناد إلى الفرص التى تتيحها الدسائس والمحسوبية كل أولئك صفات تكون أكثر وضوحاً عند بعض الطبقات ، منها عند بعضها الآخر . كما أن حظ الطبقات منها يختلف بحسب العصور وبحسب الظروف الخاصة التى تسود فى كل عصر . ويسرى نفس القول على الإجرام الذى يغلب وجوده فى الأوقات العادية بين أفراد الطبقات الدنيا ، إما بسبب الفقر الذى يضعف مقاومتهم لعوامل الإغراء ، وإما لقلة حظهم من التربية أو لضعف سيطرتهم على أنفسهم أو لاندفاعهم إلى غير تلك من الأسباب .

ويمكن القول بصفة عامة : إن ضروب الفضائل والأهواء التى تتصف بها طبقة معينة تنبع من نوع حياتها ومن الدور الذى تلعبه فى المجتمع ، والوظيفة التى تؤديها . ولذا نجد أن الطبقات المهيمنة على شئون الإدارة والحكم تتصف عادة بالحكمة والحذر ، وأن الطبقات العسكرية تتصف باحتقارها للأخطار والتطلع إلى المجد والشجاعة وحب النظام ، وأن الطبقات العاملة تتميز بالوعى المهنى وحب العمل والحرص على إتقانه . ولما كانت الطبقة البورجوازية تهتم كثيراً بالمسكن والأثاث والملبس وأدوات الزينة والمائدة فإنها لذلك تميل إلى الاقتصاد لأن أثمن ما تملكه

لا يحتفظ بقيمته إلا بالمحافظة عليه . ونلاحظ عكس ذلك لدى الطبقة العاملة التى تنفق الجزء الأكبر من كسبها على الغذاء وتهتم بملذات المائدة والحانات أكثر مما تهتم بأنواع المتع الأخرى ، وهى لذلك تبدو أكثر ميلا إلى التبذير لأن أغلب ما تملكه لا يمكن التمتع به إلا باستهلاكه . ويترتب على ذلك أن العمال غالباً ما يقنعون بالمسكن المتواضع مفضلين إنفاق أقل ما يمكن على المسكن ، وأكثر ما يمكن على سهرات الحانة فلا تلبث هذه العادة أن تجرهم إلى الرذيلة المبكرة ، وتضعف عندهم الميل إلى حياة الأسرة . غير أننا من ناحية أخرى نجد أن عدم المبالاة التى يتصفون بها وتعودهم المعيشة يوماً بيوم دون الاهتمام بما يحمله المستقبل قد أبعدتهم عن التدبيرات الأشرة مما يبث فى نفوس العناصر الطيبة فيهم روح الإخلاص والتفانى فى خدمة الزملاء ، ويدفعها فى طريق الخير والشفقة ، ويملأ أرواحها بالعواطف التلقائية التى لا تعرف الزيف أو الالتواء[1] .

أما الطبقة الأرستقراطية فيسود فيها الكبرياء والطموح وحب السلطة ، وألقاب الشرف عند الرجال ، على حين يسيطر الزهو على السيدات ويتخذ أشكالا مختلفة منها حب الزينة والحلى والتطلع إلى عبارات الإطراء والمديح وحب الظهور فى الأماكن

---

(١) وأخيراً نجد أن المؤلف قد مال إلى إنصاف طبقة العمال واعترف بما لديهم من الخصال الحميدة وحبهم للخير وتلبيتهم لواجبات الزمالة . (المترجم)

الممتازة والتقدم على الغير الخ . . . ويسود لدى أفراد الطبقة البورجوازية العليا — التى تملك زمام التجارة وأعمال المصارف وعقد الصفقات — الميل الشديد إلى الربح والتباهى بالغنى والثروة وحب الترف . أما الطبقات الدنيا فتميل فى العادة إلى إدمان الخمر وملذات الجسد بمقدار ما يفتر فى نفوس أفرادها الشعور بقيمة الكرامة الإنسانية .

نخلص مما تقدم بأن لكل طبقة فضائلها التى تجعل منها نموذجا يحتذيه الآخرون كما أن لها مثالبها التى تحول دون محاكاتها . والمجتمع الكامل الذى لا وجود له فى هذه الدنيا والذى نستطيع أن نتخيله مثالا ينبغى أن نقترب منه شيئاً فشيئاً هو المجتمع الذى تسعى فيه كل طبقة بكل ما أوتيت من عزم أن تكتسب ما عند الطبقات الأخرى من فضائل ، وأن تتنافس معها وتضم إليها جهودها لتحقيق الخير للجميع .

التأثير الثقافى المتبادل بين الطبقات :

إن التأثير الثقافى للطبقات بعضها فى بعض ليس محض خيال ولا هو بالوهم الذى لا صلة له بالواقع . وإذا كان هذا التأثير لا يعبر عن وظيفة طبيعية سوية من وظائف المجتمع ، فإنه مع ذلك يحدث بطريقة تلقائية نتيجة لمحاكاة الطبقات الدنيا للطبقات العليا عن قصد أو غير قصد . وتبدو هذه المحاكاة على الخصوص

فى مظاهر النظافة والأناقة وطرائق التأدب والتهذيب التى انتقلت من الطبقة العليا إلى الشعب . ويجب أن ندخل فى اعتبارنا كذلك أن شرفاء الناس والأسوياء منهم تستهويهم الفضيلة بفطرتهم وتستحوذ على إعجابهم مهما كانت الطبقة التى ينتمون إليها .

ويلاحظ « توكفيل » عن حق : « أن الطبقة التى تمكنت من السير فى المقدمة خلال عدة قرون تكتسب من هذه الممارسة الطويلة لمظاهر الزعامة — الاعتزاز بالنفس وثقة طبيعية فى قوتها كما تعتاد أن تكون مثالا يحتذى وبذلك تصبح أقوى دعامة للكيان الاجتماعى . وهى لا تعبر عن أخلاق الرجولة فحسب بل تسهم بما تبديه من أمثلة فى تقوية مراس الطبقات الأخرى .

وقد كانت هذه فى الواقع الوظيفة الاجتماعية لطبقة النبلاء إبان مجدها . إذ أن ما كان لها من شعور بالشرف واحترام للذات وللأصل حتم عليها التضحية والحرص على ألا تتدهور فتفقد ما اكتسبه الأجداد من مجد . وقد انتقلت هذه الصفات جميعها إلى طبقات المجتمع شيئاً فشيئاً . وأخذت ترتفع بها على درج حتى أصبحت تنظر إلى واجباتها نظرة تقديس وإجلال . وكان الاستقلال الذى يتمتع به أمير الإقطاع وشعوره بكرامته مثلا أعلى يتوق الفلاحون والسوقة أن يصلوا إليه . وأصبح نظام الإقطاع على هذا النحو نموذجاً فى أعين سكان المدن الذين ما لبثوا أن نظموا أنفسهم فى مجموعات إقليمية للمطالبة بحقوقهم

وامتيازاتهم أسوة بأمراء الريف ، كما حرصوا على تنفيذ العقود والوعود واضعين نصب أعينهم إرضاء شرفهم بالقيام بتعهداتهم فألفوا بذلك وحدات مدنية مستقلة لكل وحدة زعيمها وجيشها وشاراتها ونظامها التشريعى الخ ... ورغبة منهم فى مجاراة أمراء الريف إلى أبعد حد أخذوا يعتنقون مبادئهم وفضائلهم ويبدون مثل شجاعتهم ، ويحاكون نظامهم الاجتماعى ويستمسكون بما لهم من روح الإخلاص ومن مقدرة على التضحية فى سبيل الصالح العام .

وفى العصر الحديث تقدم لنا اليابان مثالا آخر لتأثير الطبقة العليا فى مجموع أفراد الشعب . فالطبقة الحربية التى كانت تتكون من أمراء الإقطاع « الداميو Daimios [1] » وفرسان الجيش « الساموراى Samorais » ومن النبلاء وأتباعهم قد أسهمت بما كان لها من سطوة ونفوذ فى خلق روح التضحية واحتقار الموت والبطولة والتعصب للوطن ، وهى الروح التى امتاز بها الشعب اليابانى فى مجموعه وتجلت بأجلى مظهر فى صفوف الجنود اليابانيين .

وقد خلفت كل طبقة وصلت إلى مركز الصدارة والسلطة

---

(١) الداميو اسم يطلق على أمراء الإقطاع فى اليابان وهم الذين فقدوا امتيازاتهم فى ثورة ١٨٦٨ . (المترجم)

فى المجتمع وراءها تراثاً استفادت منه الأجيال اللاحقة . فخلقت النبالة الفرنسية مثلا تقاليد جديدة كالتمسك بالشرف والأخذ بناصر الضعيف ، والرقة فى معاملة السيدات واحترام المرأة وصيانة العهد . وأذاعت طبقة رجال الكنيسة روح التقوى والإحسان ومساعدة الفقراء والشعور بالقيمة السامية للحياة الروحية والحرص على نقاء الضمير . أما طبقة البورجوازية الفرنسية الأصلية فقد تركت هى الأخرى لأحفادها تراثاً ثميناً قوامه الفضائل المتينة السمحة التى لم تتزحزح عنها قيد أنملة ؛ وأهمها استقامة السلوك والنزاهة الصارمة والإخلاص فى العمل وروح التدبير والاقتصاد ، وتفضيل الواجب على المتعة ، والإيمان بأن الشرف أقوم من المال . وعلى هذا النحو غدت فضائل الأرستقراطية نموذجاً للبورجوازية ، كما أصبحت فضائل البورجوازية نموذجاً للشعب ، وتغلغلت فضائل رجال الكنيسة فى جميع الطبقات عن طريق القدوة والتعليم . وإذا نحن قارنا روسيا القيصرية بمجتمعات أوربا الأخرى فى هذه الناحية وجدنا أن روسيا لم تكن بها طبقة أرستقراطية بالمعنى الحقيق لهذه الكلمة ، وكان رجال الكنيسة فيها على درجة ظاهرة من النقص والعيب ؛ لذا لم يرتفع المستوى الأخلاقى للأمة — كما لاحظ ذلك مكسيم جوركى نفسه — إلى الدرجة التى وصل إليها فى سائر بلدان أوربا .

خاتمـــــة

تقوم الطبقات فى كل مجتمع سواء اعترفت بها الدوله أو لم تعترف وسواء أخضعتها أو لم تخضعها لتنظيم القانون. وهى تنشأ عن تغيير تلقائى فى مستويات المعيشة وأنواع الحياة فى المجتمع بسبب اختلاف الأعمال والمهن والتفاوت فى الثروة أو الثقافة أو المواهب أو الفضائل. فإن اشترك عدة أفراد فى مستوى المعيشة أو نوع الحياة كان عاملا على تقارب بعضهم من بعض وعلى إيجاد أنواع من الصلات والتعاطف فيما بينهم، وقد يكون ذلك بدافع الضرورة أو بدافع الحكمة وتشابه الأذواق.

إن التكوين التلقائى للطبقات بل أن وجودها فى جميع الشعوب، البدائى منها والمتحضر، يدل على أنه يستجيب لضرورات اجتماعية ثابتة ولحاجات دائمة. بيد أن الظروف التاريخية والأحوال الاجتماعية فى بلد ما أو فى عصر معين قد تؤدى إلى خلق طبقة جديدة أو تعمل على تطوير أو تدهور أو اختفاء كل طبقة على حدة.

وهذا يعنى أن كل طبقة تقوم بوظيفة فى المجتمع. وهذه الوظيفة هى مجموع الأعمال والواجبات التى تؤديها أو ما سماه «أرسطو» نشاطها الخاص، سواء أكان ذلك زراعة الأرض

أو صناعة الأدوات والأسلحة أو إعداد الحرب وقيادتها أو التفكير أو التعليم أو الحكم الاتجار فى الحاصلات ونقلها إلى مكان الحاجة إليها أو على العمل على احترام قواعد القانون إلى غير ذلك من وجوه النشاط .

ويختلف تقدير الناس لهذه الأعمال المختلفة تبعاً لما لها من فائدة ولما تؤديه من خدمات وليس أدل على هذه الحقيقة مما شاع فى المجتمعات القديمة من تقدير أو تحقير للعمل وفقاً للظروف التى عاش فيها كل مجتمع . إذ جاء على لسان « هزيود Hésiode » أن غضب الآلهة لا يقل عن غضب الناس من كل من يعيش بدون عمل . وليس هناك ما يعيب فى أى عمل ولكن العيب هو ألا يعمل المرء شيئاً . وكانت هذه عقيدة الأثينيين فقد كانوا سكان بلد يدين برخائه لممارســـة التجارة ولذا فقد أمر « دراكون dracon » ثم « صولون Solon » من بعده بتوقيع عقوبات على الكسالى العاطلين . أما فى اسبارطة فقد كان الأمر على عكس ذلك . إذ لما كان سكان المدينة محوطين من كل جانب بأعداء أكثر منهم عددا فقد اضطروا للتفرغ لأعمال الحرب كما أن الحكومة من جانبها جعلت سياستها أن يعيش المواطنون فى حالة تقشف حتى لا يضعف الثراء من شجاعتهم أو يفسد أخلاقهم ولذا فقد حرم على المواطنين القيام بالأعمال التى تدر عليهم المال تحريما تاما ومن ثم ندرك مغزى ماقاله أحد الاسبرطيين

حين سمع بتوقيع العقوبة على أحد سكان المناطق المجاورة لتعطله عن العمل «دلونى أين يوجد هذا الرجل الذى عوقب لأنه كان يعيش حرا». وحذت حذو اسبارطةمدن «تيسبيس Thespies» و «طيبة Thébes» و «ابيدور Epidaure» إذا كانت تعد ممارسة أى مهنة فقدانا لحقوق المواطنة. وقد يبرر هذه النظرة نوع الحضاره التى عاشت فيها هذه المجتمعات إذ كانت تضم بين ثناياها من العبيد والأجانب أكثر مما كانت تضم من المواطنين الأحرار ولذا تعين على كل مواطن أن يخضع لالتزامات مدنية وسياسية عدة ما كان يستطيع الوفاء بها أو أداءها على الوجه الأكمل إذا هو شغل نفسه بممارسة مهنة. وهذا بالذات هو مادفع أرسطو إلى القول بأن «الانسان الذى يحتاج أن يعمل لكى يعيش لايستطيع أن يكون مواطنا». فالصالح الاجتماعى اذن هو الذى مال بالعقول إلى احتقار المهن اليدوية التى اشتهرت بأنها تفقد المرء حريته نظرا لقيام العبيد بها.

نرى من هـــذا أن الطبقات التى تستجيب أعمالها العادية لحاجات اجتماعية جوهرية يكون لها مركز الصدارة فى الأحداث وفى الأذهان وفقا لحالة الحضارة فى عصر معين. ففى حضارة علمية وصناعية كحضارتنا الحالية مثلا يعد صيت النبلاء أثراً من آثار الماضى كما أن نفوذ رجال الكنيسة قد ضعف بكثير عما كان عليه فى النظام الملكى القديم. ولكن كبار رجال الصناعة

أخذوا يحتلون مكان الصدارة في المجتمع وأصبح للعلماء والأطباء والمهندسين ولطبقة العمال بصفة عامة من الأهمية ما لم يكن لها في أي زمن من الأزمان وعلى العكس من ذلك أي حينما كان العلم والصناعة والمعاملات المالية أموراً لا أهمية لها في العصور الوسطى كانت الكنيسة والنبالة العسكرية تتمتعان بسلطة عريضة ونفوذ واسع . إذ كانت الأولى تقوم على خدمة الدين والعقيدة التي كانت متغلغلة إلى أبعد حد في النفوس ، وكانت الثانية تقوم بحاجة الحماية والدفاع عن النفس في وقت كانت الحاجة فيه إلى الحماية كبيرة .

نخرج من هذا كله بنتيجة أساسية وهي أن الطبقات تختلف وتتنوع تبعا لطبيعة الخدمات التي تؤديها وأنها تتدرج في الأهمية بحسب قيمة هذه الخدمات .

ومع ذلك فإذا نظرنا إلى الأمور نظرة فاحصة وجدنا أن تدرج الطبقات لا يتوقف على عامل المنفعة وحدة ، أي على أهمية الأعمال التي تؤديها كل طبقة من الطبقات المجتمع في مجموعه بل إنه لا يعتمد كل الاعتماد على التقدير الذي يكنه الناس لقيمة هذه الأعمال . فما من شعب يستطيع أن يستغني عن القمح أو الأرز أو اللبن أو الجلد أو الصوف أو أي نوع آخر من أنواع السلع الاستهلاكية. ولم يكن «أتيلا Attila» نفسه — أتيلا الحقيقي الذي

لا ينطبق تماما على ما تصوره الأسطورة — لم يكن يخرب جميع البلاد التى تغزوها بل كان يقتصر على تدمير المدن ، ويبقى على القرى حتى يستطيع أن يجد ما يغذى به رجاله وخيله . ولكن على الرغم من هذه الأهمية الرئيسية لطبقة الفلاحين فإنها لم تكن فى يوم من الأيام الطبقة المهيمنة على مقاليد الأمور ولم يحدث هذا حتى فى الصين نفسها وهى البلاد التى كان للفلاح فيها من الأهمية ما جعل الإمبراطور يشعر بالحاجة إلى أن يعلن على الملأ أنه الفلاح الأول فى البلاد .

وعلى ذلك فليست المنفعة وحدها هى المقياس الوحيد لقيمة الطبقة حتى ولو كانت موضع تقدير المجتمع بأكمله . بل يجب النظر بعين الاعتبار إلى الوظيفة ذاتها وأهميتها فى البناء الاجتماعى. وليس من شك فى أن أى بلد يستطيع أن يعيش وهو فى غنى عن العلماء والفنانين والمشرعين لكنه لا يستطيع أن يستغنى عن حارثى الأرض أو الحدادين . ومع ذلك فلم تكن طبقات العمال والفلاحين فى أى يوم من الأيام أبرز طبقات المجتمع . وحتى فى روسيا السوفيتية نفسها وهى التى ادعت أنها أعطت المكانة الأولى لتلك الطبقات ورمزت لهذه المكانة بالمنجل والمطرقة وضعتهما شعاراً على العلم الوطنى للدولة ، لا نزال نلحظ تدرجا اجتماعيا كما كانت الحال فى عهد القياصرة إذ ، يحتل أعضاء المكتب السياسى

للحزب الشيوعى وقواد الجيش والعلماء الرسميين ورجال الإدارة المكانة الأولى دون منازع .

هذه الظاهرة التى فرضتها طبيعة الأشياء هى التى نتناولها الآن بالتحليل لنوضح حقيقتها :

فمن يلاحظ العالم الذى نعيش فيه يتضح له أنه يقوم على تدرج بين الكائنات . وأن أكثر الكائنات ضرورة للحياة أحطها مرتبة . فعالم المادة أو مملكة المعادن التى تعد أدنى مراتب الكون هى العماد الضرورى لكل من المملكتين النباتية والحيوانية ولا تستطيع أفراد المملكة الحيوانية نفسها أن تستغنى عن المملكة النباتية إذ أنها تعتمد عليها فى غذائها سواء تغذت بالنباتات أصلا أو الحيوانات التى تعيش على العشب أو الحبوب والواقع أن وجود الوظائف الدنيا شرط أساسى لوجود الوظائف العليا . هذا قانون عام من قوانين الطبيعة . فلكى يستطيع الإنسان أن يفكر وأن يحس وأن يريد يجب أولا أن تستنشق رئتاه الهواء وأن تهضم معدته الغذاء وأن يخفق قلبه بالنبض وأن يجرى دمه فى عروقه وشرايينه . وإذن فحياته الروحية وهى أسمى جانب من نشاطه مشروطة بحياته الحيوانية وهذه الحياة الحيوانية مشروطة نفسها بحياته العضوية

ولا يختلف الأمر عن ذلك فى المجتمعات الإنسانية[١] . فحراث الأرض فيها والعمال والتجار شرط لوجود الحكام ورجال الدين والفلاسفة والعلماء . فهؤلاء فى حاجة إلى الحراث والعمال والتجار لتزويدهم بالغذاء والملبس والمسكن والأثاث وكل ما تتطلبه حياتهم المادية كما أنهم يعتمدون عليهم فى تزويدهم بالسلاح اللازم للدفاع عن أرضهم وكيانهم . ومع ذلك فإن من يتقلدون زمام السلطة الزمنية أو الروحية هم الذين يحتلون المراتب العليا فى المجتمع على حين أن الفلاحين والعمال يكونون أو كانوا دائما يؤلفون الطبقات الدنيا .

والسبب فى ذلك فى الواقع أن إرادة الحياة عند الأفراد والجماعات تتجه دائماً وجهة معينة وتهدف إلى تحقيق أهداف عليا : فالأفراد والجماعات لا يجهدون فى الاحتفاظ بالبقاء فحسب بل يحاولون أن يحققوا شكلا معيناً من أشكال الحياة ويجتهدون للاحتفاظ به فى أسمى مظاهره . ومن ثم بدت وظائف القيادة والتوجيه السياسى والدينى والخلقى ، بدت أكثر أهمية من وظائف الإنتاج والتبادل بالرغم من أن هذه الأخيرة أكثر منها ضرورة . وقد استطاعت الزراعة والصناعة خلال قرون طويلة أن تستغنى عن العلم التجريبى؛ ولكن الحضارة التى وصلنا إليها والتى نتمسك بها اليوم تقوم على

---

(١) هذا الاتجاه فى تشبيه المجتمع فى تطوره بالكائن الحى اتجاه ساد فى القرن التاسع عشر على أثر تقدم علوم الحياة ومن أهم أنصاره العالم الانجليزى هربرت سبنسر . انظر بحثنا « نظرية التطور الاجتماعى » فى منشورات الجمعية المصرية لعلم الاجتماع » . (المترجم)

السكك الحديدية وعلى وسائل الملاحة التى تسير بالبخار أو البترول وعلى الطائرات والسيارات وخطوط البرق والتليفون وعلى الإنتاج الكيميائى وصهر المعادن وهذه الوسائل كلها يستحيل تحقيقها بدون العلم . كما أن هذه الحضارة تتضمن أيضا قوانين ونظاما اجتماعيا وعقائد فلسفية ودينية وقواعد أخلاقية لولاها لرجعت الإنسانية إلى حالة الوحشية والهمجية .

نخلص من هذا إلى أن كل مجتمع له مثل أعلى فى الحياة يصدر بمقتضاه أحكامه ويرتب وجوه نشاطه . وبالقياس إلى هذا المثل الأعلى يضع المجتمع بطريقة لا شعورية أو عن إدراك تام لطبيعة الأشياء — إحدى الطبقات فى مكانة أسمى مما تحتله الطبقات الأخرى .

ويستمد هذا المثل الأعلى طبيعته وقوته من نزعة طبيعية تميل بالطبقات الدنيا إلى محاكاة الطبقات العليا ويجعلها تكف عن هذه المحاكاة بالرغم من ضروب الصراع والمنافسة القوية التى تنشأ فيما بينها . فلا زلنا نرى فى أيامنا هذه أن طبقة العمال تطمح فى أن تتخذ لنفسها مظهرا بورجوازيا بالرغم من العداء الذى تبديه للبورجوازية .

ولا شك أن من الرغبات المشروعة للعمال أن يتمتعوا بمستوى معقول من الرفاهية ، وأن يكون لهم من الاعتبار ما

للطبقات الأخرى وأن يشعروا مثلها بنوع من الأمن بالنسبة لغدهم وأن يتمكنوا من الاحتفاظ بجزء من دخلهم يستعينون به على عاديات الزمن ؛ كما أن من حقهم أن يتخلصوا من الشعور بأنهم قافلة من القوم الرحل استقرت على رقعة من أرض الدولة التى ولدوا فيها حيث تتطلب دواعى العمل ، وذلك بعد أن فعلت بهم السياسة الأفاعيل وصورتهم على أنهم جزء غريب عن جسم الدولة . فشعور العمال بالنقص والدونية وعدم الثقة والحقد والحسد، كل أولئك يرتبط بهذه الرغبة المشروعة فى الارتقاء الاجتماعى . بل نستطيع أن نرى فى طموحهم للاستحواذ على السلطة مظهراً من مظاهر تطلعهم للتشبه بتلك الطبقات الحاكمة التى يثورون ضدها .

إذا تعمقنا إذن جوهر الظواهر وجدنا أن هناك تدرجا فى الوظائف يتضمن — لممارستها المشروعة — عددا من القدرات والفضائل المحددة . ووجود هذه القدرات والفضائل عند الطبقات الموجهة لدفة الأمور واعتراف الطبقات الأخرى بها هو الأساس الذى تقوم عليه السلطة والنفوذ . وما كانت جميع الطبقات الاجتماعية التى وصلت إلى مراكز الحكم بصفتها الطبقية كطبقة رجال الكنيسة وكبار النبلاء وأثرياء البورجوازية — ما كانت هذه الطبقات لتصل إلى ماوصلت إليه من سلطة ونفوذ إلا على أساس الاقتناع الذى ملأ نفوس الشعب بأن الكهانة والنبالة

والبورجوازية الثرية ترتبط بفضائل خلقية معينة كالتقوى والإحسان والشجاعة والكرم والتحمس للعمل ولمصالح الجماعة؛ كما أنها لا تنفصل عن قدرات اجتماعية مفيدة تقوم على معرفة الله ومعرفة الواجبات الإنسانية وإتقان فن قيادة الجيوش والنجاح فى المشروعات إلى غير تلك من الأمور التى تبرر فى نظر الشعب حق هذه الطبقات فى إدارة الشؤون العامة والهيمنة على أمور الدولة .

ويترتب على ذلك حقيقة هامة وهى أنه إذا كانت المكانة التى تحتلها إحدى الطبقات فى المجتمع ترتبط بالوظيفة التى تؤديها وبالدور الذى تقوم به فإن الاعتبار الذى تكسبه يتوقف أولا وقبل كل شىء على إتقانها لهذه الوظيفة وعلى قيامها بواجبها فى إخلاص وكفاية . وأنها تعرض نفسها وتعرض المجتمع بأكمله للخطر إذا نسيت وظيفتها وواجباتها وانصرفت إلى التفكير فيما يعود عليها من مغانم عن طريق الوظيفة . ويزودنا التاريخ بأمثلة كثيرة لطبقات وفئات اجتماعية أغراها الطمع فوقعت فى هذا الخطأ .

فبالرغم من المنافع الاجتماعية التى تؤديها عادة كل طبقة فإنها تميل أحياناً إلى أن تشيح بوجهها عن التضامن الذى يربطها بالطبقات الأخرى وتنسى المصالح التى تؤديها هذه الطبقات

إلى رخاء البلد وعظمته . وهى فى هذه الحالة، فى الواقع، تندفع وراء رغبتها فى الاحتفاظ بكيانها تحدوها رغبة فى الحياة وقوة دافعة لا تتفق دائما مع مايسود المجتمع، فى مجموعه، من اتجاهات وميول . ومن الأمور المتفق عليها أن الأهواء والميول الأنانية تفوق فى قوتها العواطف الغيرية والاتجاهات المنزهة عن الغرض . فالحكماء والأبطال والقديسون فى أى عصر من العصور قلة نادرة. فكل طبقة إذن أنانية بطبعها وتنزع بفطرتها إلى أن تمنع عن الآخرين ما تتمتع به من مزايا خشية أن يقلل ذلك من قيمة ما تتمتع به . ولذلك فإن التوسع فى منح حق المواطنة للأجانب فى أثينا وفى روما قد اصطدم بمقاومة الطبقات الدنيا له مقاومة عنيفة . ولم يكن السبب الوحيد لهذه المقاومة فى أثينا هو أن حق المواطنة كان يؤدى إلى حق امتلاك الأرض مما كان يعرض الأثينيين لانتزاع أراضيهم منهم وإعطائها إلى الأجانب الذين حصلوا على الجنسية، بل كانت أيضا بسبب توزيع حصيلة الضرائب التى تفرض على الأغنياء لصالح الفقراء إذ كان هؤلاء يحصلون على نصيب أكبر كلما قل عددهم . أما فى روما فلم تحفل طبقة الشعب بأن تقتسم القمح الذى كان يوزع مجانا أو بأثمان منخفضة أو غنائم الحرب أو الأراضى التى تمنحها الدولة ، لم تحفل بأن تقتسم ذلك مع الإيطاليين الذين تمنحهم السلطات حق المواطنة . وقد وقفت طبقة الشعب فى فرنسا قبل الثورة موقفا عدائيا مماثلا

من النبلاء حين طلب هؤلاء أن يمنحوا حق ممارسة التجارة وكان هذا الشعور نفسه يسيطر على النقابات المهنية فى دويلات الأراضى المنخفضة الديمقراطية التى وصفها « هنرى بيرين Pirenne » وصفاً دقيقاً . فكانت كل مهنة فى ظل هذا التنظيم الديمقراطى تنطوى على نفسها بزعامة رئيس كما كان الحال فى الأسرة الرومانية وكانت خدمات الطائفة لا تتعدى نطاق أعضائها مما يجعلها تتصرف فى أنانية نحو كل من لا يمت إليها بصلة كما كانت كل نقابة تتمسك بامتيازاتها ولا ترضى بها بديلا .

هذه الأنانية الطبقية لا تلبث أن تغدو من أسباب تدهور الطبقات واضمحلالها : ذلك أن كل طبقة تتوقف عن التعاون مع الطبقات الأخرى تصبح فى عزلة عن بقية المجتمع الذى لا يلبث أن يناصبها العداء وتجهد مدفوعة بأنانيتها فى أن توسع نطاق امتيازاتها أو تحتفظ بها دون انتقاص ، وذلك فى الوقت الذى تصبح فيه الخدمات التى تؤديها لا تعادل ما تتمتع به من امتيازات . وينتج بالضرورة عن هذه الأنانية أنواع التنافس والصراع الاجتماعى بين الطبقات .

ومما يعرض الطبقة التى تسيطر على الامور أو التى تشعر بأهميتها للخطر هو أن تستغل نفوذها استغلالا سيئاً أو تنتهز فرصة حاجة الطبقات الأخرى إليها لكى تبسط نطاق المزايا التى تتمتع بها . ومما يعرضها للخطر كذلك أن تهمل فى أداء

وظائفها التى اختصت بها أو تتركها وتظل تدعى لنفسها الاحتفاظ بجميع الامتيازات التى خولتها لها خدماتها التى توقفت . وقد كان هذا سبب تدهور النبلاء فى أواخر النظام الملكى القديم وسيكون سبب تدهور أى طبقة أخرى إذا وصلت إلى مركز ممتاز فى أى ناحية من النواحى ، ثم وجهت همها لزيادة ما تتمتع به من الامتيازات دون أن يكون هناك ما يقابلها من الخدمات : فتتدهور البورجوازية مثلا إذا لم تحاول أن تفهم أن الثراء يحملها واجبات وتبعات . وتفقد طبقة العمال كل عطف إذا أخذت تطالب كل يوم بزيادة أجورها مهددة بالإضراب وأخذ إنتاجها يضعف يوماً عن يوم ولم تراع ضميرها فيما تعمل وأصبحت تعمل فى كسل وإهمال .

ومن الأخطار التى تهدد الطبقات كذلك أن يحاول بعضها محاكاة بعض فى غير تبصر أو تعقل . فقد رأينا أن الطبقات التى لا حظ لها من الصيت والنفوذ تحاول أن تتخذ من الطبقات العليا نموذجاً تحذو حذوه فتحاول أن تتمتع بما تتمتع به من وسائل الترف وأنواع اللهو أو تحاول أن تقتبس شيئاً من عاداتها أو تكتسب شيئاً من ثقافتها . وقد قلنا إن محاكاة الطبقات بعضها بعضاً ييسر تبادل الثقافة فيما بينها . فعن طريقها استطاع النبلاء والبورجوازيين أن يزودوا أنفسهم بالمعرفة والعلم اللذين ظلا وقتاً طويلا وقفا على طبقة رجال الكنيسة ،كما أن قواعد التأدب والتهذيب

التى اتصف بها كبار الأساقفة والنبلاء هبطت شيئاً فشيئاً عن طريق المحاكاة إلى مستوى البورجوازية ، ثم إلى الشعب .

ولكن هذه المحاكاة المتبادلة بالرغم من مزاياها العديدة تحمل أيضاً فى طياتها أخطاراً كبيرة . فالطبقة التى تحاكى أخرى قد تقتبس عاداتها السيئة وعباراتها المرذولة وعيوبها ومفاسدها ، كما تأخذ عنها حسن المظهر والوجاهة وأناقتها فى التعبير وصفاتهـا الفاضلة . ومن قبيل ذلك ما لوحظ من اقتباس أفراد المجتمع الراقى لكثير من المصطلحات السائدة فى الأوساط الشعبية والعمالية « L'argot » ، وما لوحظ من إدمان بعض أفراد البورجوازية للخمر كثالة الشعب ، وذلك باقتباس عادة تقديم « الكوكتيل » فى كل مناسبة . ولسنا فى حاجة لأن نذكر محاكاة السيدات الأعمى وولع رقيقات الحال منهن بمحاكاة سيدات الطبقات الغنية فى ملبسهن وزينتهن وطريقتهن فى تصفيف الشعر الخ . .

فى مثل هذه الأحوال يمكن القول بأن ما يهدد إحدى الطبقات بالخطر حين تحاول الارتقاء وتحسين مركزها هو أن تحاكى الطبقة العليا التى تحاول الاندماج فيهـا أو احتلال مركزها فى نقائصها ومفاسدها بدلا من أن تحاكيها فى ميزاتها وفضائلها : فتتخذ البورجوازية مثلا النبالة نموذجاً لها فى تقليد مجونها وادعائها وطموحها دون أن يكون لها اعتزازها بالشرف وسخاؤها الأصيل.

ولا تختلف عن ذلك حالة « محدث النعمة » الذى يبعثر المال يمنة ويسرة دون أن يستطيع بذلك أن يتخذ مظهر « النبيل ذى القلب الكبير » . كما أن طبقة العمال قد تتخذ البورجوازية نموذجاً لها وذلك بالسعى وراء المتعة والرفاهية دون أن تهتم باكتساب ما للبورجوازية من روح التدبير والاقتصاد وما اشتهرت به من الوعى المهنى والاستقامة .

وأملنا الذى نرجو أن يتحقق لهو عكس هـذا على التحديد : إذ نرجو أن يكون النموذج الذى تتخذه كل طبقة من محاكاتها للأخرى قائماً على اقتباس الفضائل التى ترى أنهـا تنقصها أو التى لا تتمتع منها إلا بحظ ضئيل ، وأن تسود هذه القاعدة جميع الطبقات ، العليا منها والدنيا . وهذا الأمل لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان القائمون على رأس الدولة أنفسهم قدوة لغيرهم بحيث يرسمون لهم المثل الأعلى الذى يحتذونه، وينالون من احترام الغير بما لهم من كفاءة واستقامة وما يحرصون عليه من حب للحقيقة والعدالة وإخلاص للصالح العام وإنكار للذات[1] .

---

(١) مما يدعو للغبطة والفخر أن هذا الأمل قد تحقق فى مصر بعد قيامها بثورتها التحريرية فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . إذ أصبح زعماؤها وقادتها قدوة لأفراد الشعب جميعاً بإخلاصهم وحرصهم على الواجب ، وعلى تحقيق العدالة ، وتفانيهم فى خدمة الشعب ورفع مستوى الطبقات الفقيرة . (المترجم)



"هذا الكتاب يعرض لطبقات المجتمع من شتى النواحى، كما إن له ميزة أخرى وهى عرض النظم من ناحيتها التاريخية عرضا مبسطا ووافيا فى الوقت نفسه، فأتاح بذلك للقارئ العادى فرصة التثقف واكتساب المعلومات العامة دون عنت أو إرهاق."

الغلاف... د. خالد سرور



www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com